سلسلة دراسات قرآنية

(3)

العلم والتفكر والحكمة واليقين في القرآن الكريم

أ.د عبد الله الشارف

كلية أصول الدين / تطوان

سلسلة دراسات قرآنية

(3)

العلم والتفكر والحكمة واليقين في القرآن الكريم

أ.د عبد الله الشارف

كلية أصول الدين / تطوان

الكتاب: العلم والتفكر والحكمة واليقين في القرآن الكريم

المؤلف: أ.د عبد الله الشارف

الطبعة الأولى: 1447 هـ /2026 م

الطبع: مطبعة تطوان – تطوان

البريد الالكتروني: imp.tetouan@gmail.com

رقم الإيداع القانوني الوطني: 2026MO0662

رقم الإيداع القانوني الدولي: 978-9920-8671-08

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. ونشهد ألا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله؛ بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وكشف الغمة، وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه أجمعين. أما بعد؛

فبتوفيق وتسديد من الله سبحانه، تم تحرير الكتاب الثالث من سلسلة "دراسات قرآنية" بعنوان: "العلم والتفكر والحكمة واليقين في القرآن الكريم". ولا يخفى على أولي الألباب مدى عناية القرآن العظيم بهذه الموضوعات الجليلة، ومدى حثِّ شرعنا الحكيم على الاهتمام بها، وتوظيفها في الحياة والمعاملات. إذ كيف تصلح الحياة وتستقيم إذا غاب العلم والتفكر، وأفلت الحكمة، وانعدم اليقين؟

وما ساد المسلمون وازدهرت حضارتهم، إلا بعدما أقاموا صرح العلم، ومارسوا التفكر والتدبر في كتاب الله العزيز، وفي النفس والكون والآفاق، مسترشدين بالوحي والسنة النبوية. إن العلم، أساس الدين والدنيا وسر صلاحهما لا سيما إذا اقترن بالخشية. وكلما استضاءت الحياة بالعلم، استزادت من النعيم، وكلما ابتعدت وانحرفت عنه، اقتربت من الجحيم. فالعلم والسعادة صنوان كما أن الجهل والشقاوة أخوان. وما تنعم المتنعمون ولا تلذذ المتلذذون، بأكثر من تنعمهم وتلذذهم بنعمة العلم، لأن كل لذة غير لذته فانية.

واقتران العلم بالعمل والخشية يثمر الحكمة التي هي العلم بأحكام الدين، والعمل بمقتضاها؛ هبة من الله ونعمة منه يكرم بها من يشاء من عبادة المؤمنين. وإنك لتجد العبد الذي حظي بها، قد أوتي نورا يميز به بين الحق والباطل، ويضع الأمور في مواضعها بكل يسر وتلقائية. كما يدعو إلى الله بالحكمة، وينشر الخير بين المسلمين، وينصح لهم، ويحرص على نفعهم بما يجود عليه مولاه سبحانه، وبما يفتح عليه من حكم ومواعظ وإرشادات ونصائح. قال الحق سبحانه: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ (فاطر2). وأكرم بالحكمة المهداة من رحمة ربانية أصلها ثابت وفرعها في السماء.

ولا قرابة بين الحكمة بالمعنى الإسلامي والفلسفة التي تدعي امتلاك الحكمة. وكل محاولة للتوفيق والتقريب بينهما آلت إلى الإخفاق والفشل. وكيف يمكن الجمع بين الحق والسفسطة، أو بين الوحي الإلهي وميولات الفلاسفة وآرائهم المتضاربة؟

ولكي يقترن العلم بالعمل ويتشرَّب الخشية، وجب استحضار عنصر اليقين الذي هو من الإيمان بمنزلة الروح من الجسد. وإذا خالط اليقين شغاف القلب؛ زكا علم صاحبه، وبورك في عمله، وتنورت بصيرته، وأجرى الله الحكمة من قلبه على لسانه.

الفصل الأول:

العلم في القرآن الكريم

العلم في القرآن الكريم

العلم لغة واصطلاحا

آيات العلم في القرآن الكريم

العلم في السنة النبوية

أقوال السلف في العلم

العلم في القرآن الكريم

علم الله سبحانه

علم الملائكة عليهم السلام

علم الأنبياء والرسل عليهم السلام

علم العلماء الربانيين والمؤمنين المتقين

الله عز وجل يعلم أنبياءه ورسله والمؤمنين المتقين

العلم في القرآن الكريم

العلم لغة واصطلاحا

جاء في "لسان العرب": "العلم نقيض الجهل"[1]، وفي "المعجم الوسيط": هو "إدراك الشيء بحقيقته"[2]. وعرفه الجرجاني في "التعريفات" بأنه: "الاعتقاد الجازم المطابق للواقع، وقال الحكماء: هو حصول صورة الشيء في العقل، والأول أخص من الثاني، وقيل: العلم هو إدراك الشيء على ما هو به، وقيل: زوال الخفاء من المعلوم، والجهل نقيضه، وقيل: هو مستغنٍ عن التعريف، وقيل: العلم: صفة راسخة تدرك بها الكليات والجزئيات، وقيل: العلم، وصول النفس إلى معنى الشي"[3].

"ويطلق العلم اصطلاحًا على كل بحث موضوعه دراسة طائفة معينة من الظواهر لبيان حقيقتها وعناصرها، ونشأتها وتطورها، ووظائفها والعلاقات التي تربطها بعضها ببعض، والتي تربطها بغيرها، وكشف القوانين الخاضعة لها في مختلف نواحيها".[4]

---

[1] - لسان العرب، ابن منظور؛ محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (ت 711)، الحواشي: لليازجي وجماعة من اللغويين، دار صادر – بيروت، ط3، 1414هج، ج12، ص417.

[2] - المعجم الوسيط نخبة من اللغويين بمجمع اللغة العربية بالقاهرة الناشر: مجمع اللغة العربية بالقاهرة

الطبعة: الثانية 1392 هـ 1972 م. ج2، ص624.

[3] - التعريفات، الجرجانى؛ على بن محمد بن على الزين الشريف الجرجانى (ت 816)، المحقق: ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية بيروت –لبنان، الطبعة: الأولى 1403هـ -1983م، ص155.

[4] - علم اللغة، علي عبد الواحد وافي الناشر: نهضة مصر للطباعة والنشر، الطبعة: الأولى، د.ت.، ص24.

آيات العلم في القرآن الكريم

وردت مادة "علم" في القرآن الكريم ثمانية وسبعين وسبعمائة مرة، في صيغ فعلية وإسمية مختلفة. ومن الآيات القرآنية المتعلقة بها؛ قوله **تعالى**: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً يُوحِيٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (النحل: 43).

وقال العليم الخبير: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلاَ تَعْجَلْ بِالْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَنْ يُّقْضِيٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِے عِلْماً﴾ (طه 114).

وقال اللطيف الخبير: ﴿هُوَ ٱلذِے جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ نُفَصِّلُ ٱلاَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (يونس 5).

وقال الحي القيوم: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَيٰ هَلَ اَتَّبِعُكَ عَلَيٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً﴾ (الكهف 66).

وقال السميع البصير: ﴿وَلَقَدَ ـاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْماً وَقَالاَ ٱلْحَمْدُ لِلهِ ٱلذِے فَضَّلَنَا عَلَيٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُومِنِينَ﴾ (النمل 15).

وقال العلي الكبير: ﴿قَالَ ٱلذِے عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَآ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَنْ يَّرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رءاهُ مُسْتَقِرّاً عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّے لِيَبْلُوَنِيٓ ءَآشْكُرُ أَمَ اَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّے غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ (النمل 40).

وقال ذو الجلال والإكرام: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَاسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْماً وَعِلْماًۖ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِے اِ۬لْمُحْسِنِينَۖ﴾ (القصص 14).

وقال العزيز الحكيم: ﴿وَتِلْكَ اَ۬لْاَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا اَ۬لْعَٰلِمُونَۖ﴾ (العنكبوت 43).

وقال الغفور الرحيم: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ فِے صُدُورِ اِ۬لذِينَ أُوتُواْ اُ۬لْعِلْمَۖ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا اَ۬لظَّٰلِمُونَۖ﴾ (العنكبوت 49).

وقال البر الرحيم: ﴿وَيَرَى اَ۬لذِينَ أُوتُواْ اُ۬لْعِلْمَ اَ۬لذِےٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ اَ۬لْحَقَّ وَيَهْدِےٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ اِ۬لْعَزِيزِ اِ۬لْحَمِيدِۖ﴾ (سبأ 6).

وقال العليم الخبير: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اَ۬للَّهَ مِنْ عِبَادِهِ اِ۬لْعُلَمَٰٓؤُاْۖ إِنَّ اَ۬للَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌۖ ﴾ (فاطر 28).

وقال السلام المؤمن: ﴿أَمَنْ هُوَ قَٰنِتٌ ـانَآءَ اَ۬ليْلِ سَاجِداً وَقَآئِماً يَحْذَرُ اُ۬لَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦۖ قُلْ هَلْ يَسْتَوِے اِ۬لذِينَ يَعْلَمُونَ وَالذِينَ لَا يَعْلَمُونَۖ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ اُ۬لَالْبَٰبِۖ﴾ (الزمر 9).

وقال الحي القيوم: ﴿هُوَ اَ۬لذِے بَعَثَ فِے اِ۬لُامِّيِّـۧنَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمُۥٓ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ اُ۬لْكِتَٰبَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِے ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ (الجمعة 2).

وقال الحليم الشكور: ﴿يَرْفَعِ اِ۬للَّهُ اُ۬لذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَالذِينَ أُوتُواْ اُ۬لْعِلْمَ دَرَجَٰتٍۖ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌۖ﴾ (المجادلة 11).

وقال العليم الحكيم: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ (1) خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ (2) ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ (3) ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ (4) عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ(5) ﴾ (العلق 1-5).

العلم في السنة النبوية

عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "ألا إن الدنيا ملعونةٌ، ملعونٌ ما فيها، إلا ذكرُ الله، وما والاه، وعالمٌ أو متعلمٌ".[5]

وعن أبي موسى رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: "مثَلُ ما بعثني الله به مِن الهدى والعلم، كمثَل الغيث الكثير أصاب أرضًا، فكان منها نقيةٌ قبِلَتِ الماء، فأنبتت الكلأ والعُشب الكثير، وكانت منها أجادبُ أمسكت الماء، فنفع اللهُ بها الناس، فشربوا وسقَوْا وزرعوا، وأصابت منها طائفةً أخرى، إنما هي قيعانٌ، لا تُمسك ماءً، ولا تُنبت كلأً، فذلك مثَل مَن فقُه في دِين الله، ونفعه ما بعثني اللهُ به، فعلِم وعلَّم، ومثَل مَن لم يرفع بذلك رأسًا، ولم يقبل هدى الله الذي أُرسلتُ به"[6].

وعن قيس بن كثيرٍ، قال: قدم رجلٌ مِن المدينة على أبي الدرداء رضي الله عنه، وهو بدمشق، فقال: ما أقدمك يا أخي؟ فقال: حديثٌ بلغني أنك

---

[5] - سنن الترمذي؛ محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (ت 279 هـ)، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر، ومحمد فؤاد عبد الباقي، وإبراهيم عطوة عوض المدرس فى الأزهر الشريف، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر، الطبعة: الثانية، 1395 هـ - 1975 م، ج4، ص561.

[6] - صحيح البخاري، البخاري؛ أبو عبد الله، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة ابن بردزبه البخاري الجعفى، تحقيق: جماعة من العلماء، الطبعة: السلطانية، بالمطبعة الكبرى الأميرية، ببولاق مصر، 1311 هـ، بأمر السلطان عبد الحميد الثاني، ج1، ص27.

تحدّثه عن رسول الله ﷺ ، قال: أما جئتَ لحاجةٍ؟ قال: لا، قال: أما قدِمتَ لتجارةٍ؟ قال: لا، قال: ما جئتَ إلا في طلب هذا الحديث؟ قال: فإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: "مَن سلك طريقًا يبتغي فيه علمًا سلك الله به طريقًا إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاءً لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له مَن في السموات ومن في الأرض، حتى الحيتان في الماء، وفضلُ العالم على العابد، كفضل القمر على سائر الكواكب، إن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورِثوا دينارًا ولا درهمًا، إنما ورَّثوا العلم، فمَن أخذ به أخذ بحظ وافر"[7].

وعن ابن شهابٍ، قال: قال حميد بن عبد الرحمن: سمعتُ معاوية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ خطيبًا يقول: سمعت النبي ﷺ يقول: "مَن يُرِدِ الله به خيرًا يفقِّهْه في الدِّين، وإنما أنا قاسمٌ والله يعطي، ولن تزال هذه الأمة قائمةً على أمر الله، لا يضرُّهم مَن خالفهم حتى يأتي أمر الله".[8]

وعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: "إذا مات الإنسان انقطع عنه عملُه إلا من ثلاثةٍ: إلا من صدقةٍ جاريةٍ، أو علمٍ يُنتفَع به، أو ولدٍ صالحٍ يدعو له".[9]

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله

---

[7] - سنن أبى داود، أبو داود؛ سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدى السِّجِسْتانى (ت 275)، المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، ج3، ص317.

[8] - صحيح البخاري، المرجع السابق، ج9، ص101.

[9] - صحيح مسلم، مسلم؛ أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابورى (ت 261)، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: مطبعة عيسى البابى الحلبى وشركاه، القاهرة، ثم صورته دار إحياء التراث العربي ببيروت، وغيرها، عام النشر: 1374 هـ - 1955 م، ج3ن ص1253.

ﷺ: "إن الله لا يقبض العلمَ انتزاعًا ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلمَ بقَبْض العلماء، حتى إذا لم يُبقِ عالمًا اتخذ الناس رؤوسًا جهَّالًا، فسُئلوا فأفتَوا بغير علمٍ؛ فضلُّوا وأضلوا".[10]

وعن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "خيرُكم مَن تعلَّم القرآنَ وعلَّمه".[11]

وعن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال: لأحدثَنَّكم حديثًا لا يحدثكم أحدٌ بعدي، سمعت رسول الله ﷺ يقول: "مِن أشراط الساعة: أن يقِلَّ العلم، ويظهرَ الجهل، ويظهر الزنا، وتكثُرَ النساء، ويقلَّ الرجال، حتى يكون لخمسين امرأةً القيمُ الواحد".[12]

وعن أبي بَرْزةَ الأسلمي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ قال: "لا تزولُ قدما عبدٍ يوم القيامة حتى يُسألَ عن عمرِه؛ فيمَ أفناه؟ وعن علمِه؛ فيمَ فعل فيه؟ وعن مالِه؛ من أين اكتسبه؟ وفيمَ أنفقه؟ وعن جسمه؛ فيمَ أبلاه؟ ".[13]

أقوال السلف في العلم

"عن كميل بن زياد، قال: أخذ علي بن أبي طالب بيدي فأخرجني إلى ناحية الجبان، فلما أصحرنا جلس، ثم تنفس، ثم قال: يا كميل بن زياد، القلوب أوعية، فخيرها أوعاها، احفظ ما أقول لك: الناس ثلاثة:

---

[10] - صحيح البخاري، المرجع السابق، ج1، ص31.

[11] - صحيح البخاري، المرجع السابق، ج6، ص192.

[12] - صحيح البخاري، المرجع السابق، ج1، ص27.

[13] - سنن الترمذي، المرجع السابق، ج4، ص612.

فعالم رباني، ومتعلم على سبيل نجاة، وهمج رعاع أتباع كل ناعق، يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجئوا إلى ركن وثيق، العلم خير من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المال، العلم يزكو على العمل والمال تنقصه النفقة، ومحبة العالم دين يدان بها، العلم يكسب العالم الطاعة في حياته، وجميل الأحدوثة بعد موته، وصنيعة المال تزول بزواله، مات خزان الأموال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة."[14]

وقال عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: "ليس العلم بكثرة الرواية ولكن العلم الخشية"[15]

وعن مكحول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "من ذهب إلى علم يتعلمه، فهو في طريق الجنة حتى يرجع".[16]

وقال سفيان الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الأعمال السيئة داء، والعلماء دواء، فإذا فسد العلماء، فمن يشفي الداء؟".[17]

وقال مالك بن أنس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ليس العلم بكثرة الرواية، وإنما هو نور يضعه الله في القلب".[18]

---

[14] - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، مطبعة السعادة - بجوار محافظة مصر، عام النشر: 1394 هـ - 1974 م، ج1، ص79.

[15] - صفة الصفوة، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن على بن محمد الجوزي، المحقق: أحمد بن علي، دار الحديث، القاهرة، مصر، 1421هـ/2000م، ج1، ص157.

[16] - حلية الأولياء، المرجع السابق، ج5، ص180.

[17] - حلية الأولياء، المرجع السابق، ج6، ص361.

[18] - صفة الصفوة، المرجع السابق، ج1، ص397.

وقال رجل لعبد الله بن المبارك: "يا أبا عبد الرحمن: في أي شيء أجعل فضل يومي؟ في تعلُّم القرآن أو في طلب العلم؟ فقال: هل تقرأ من القرآن ما تقيم به صلاتك؟ قال: نعم، قال: فاجعله في طلب العلم الذي يُعرَف به القرآن"[19] .

وقال ابن أبي الدنيا رَحِمَهُ ٱللَّهُ: " اعْلَمْ أَنَّ الْعِلْمَ أَشْرَفُ مَا رَغَّبَ فِيهِ الرَّاغِبُ، وَأَفْضَلُ مَا طَلَبَ وَجَدَّ فِيهِ الطَّالِبُ، وَأَنْفَعُ مَا كَسَبَهُ وَاقْتَنَاهُ الْكَاسِبُ؛ لِأَنَّ شَرَفَهُ يُثْمِرُ عَلَى صَاحِبِهِ، وَفَضْلَهُ يُنْمِي عَلَى طَالِبِهِ".[20]

قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "مَن تَعلَّم القرآنَ والتفسيرَ عَظُمَتْ قِيْمَتُه، ومَن نَظَرَ في الفِقه نَبُلَ قَدْره، ومَن نَظَر في الحَدِيثِ قَوِيَتْ حُجَّته، ومَن نَظَرَ في اللّغةِ رَقَّ طَبْعُه، ومَن نَظَرَ في الحِسَاب جَزُلَ رَأيُهُ، ومَن لمْ يَصُنْ نَفْسَهُ لمْ يَنْفَعْهُ عِلْمُهُ".[21]

وقال ابن الوردي في لاميته الشهيرة:

أيْ بُنيَّ اسمعْ وصايا جَمعتْ   خُصَّتْ بها خيرُ المِلِلْ
أطلبُ العِلمَ ولا تكسَلْ فما   أبعدَ الخيرَ على أهلِ الكَسَلْ
واحتفلْ للفقهِ في الدِّين ولا   تشتغلْ عنهُ بمالٍ وخَوَلْ

---

[19] - الآداب الشرعية والمنح المرعية؛ محمد بن مفلح بن محمد بن مفرج، أبو عبد الله، شمس الدين المقدسي الراميني ثم الصالحي الحنبلي (ت 763هج). الناشر: عالم الكتب، ج2، ص34.

[20] - أدب الدنيا والدين؛ أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي، الناشر: دار مكتبة الحياة، 1986م، ص36.

[21] - الطبقات الشافعية الكبرى؛ تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي (ت 771هج)، المحقق: د. محمود محمد الطناحي د. عبد الفتاح محمد الحلو، الناشر: هجر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية، 1413هـ، ، ج2، ص99.

واهجرِ النَّومَ وحصِّلهُ فمنْ يعرفِ المطلوبَ يحقرْ ما بَذَلْ
لا تقلْ قد ذهبتْ أربابُهُ كلُّ من سارَ على الدَّربِ وصلْ
في ازديادِ العلمِ إرغامُ العِدى وجمالُ العلمِ إصلاحُ العملْ
جَمّلِ المَنطِقَ بالنَّحو فمنْ يُحرَمِ الإعرابَ بالنُّطقِ اختبلْ

يستفاد من الأحاديث النبوية، وأقوال العلماء والحكماء في شأن العلم ومكانته المرموقة أنه، أي؛ العلم، أساس الدين والدنيا، وسر صلاحهما لا سيما إذا اقترن بالخشية. وكلما استضاءت الحياة بالعلم، استزادت من النعيم، وكلما ابتعدت وانحرفت عنه، اقتربت من الجحيم. فالعلم والسعادة صنوان كما أن الجهل والشقاوة أخوان. وما تنعم المتنعمون ولا تلذذ المتلذذون، بأكثر من تنعمهم وتلذذهم بنعمه العلم، لأن كل لذة غير لذته فانية. فلذة الأكل تنتهي عند الشبع، وكذلك جميع اللذات الدنيوية المادية الفانية. ثم ان لذة المال منغصة ومكدرة بنوائب الظهر وفواجعه. بينما لذة العلم لا يعتريها كدر ولا تفنى. وقلما يحول بين العالم وعلمه مانع، بل تجده يجد بالعلم وتحصيله وهو يدافع المرض أو يعاني الفقر. ويكفيه فخرا أن ذكره لا ينقطع ولو بعد موته. والعلم هو الكنز الذي لا يفنى والذخيرة الموقدة للبصيرة. وقال بعضهم: "أي شيء أدرك من فاته العلم؟ وأي شيء فاته من أدرك العلم".

العلم في القرآن الكريم

سيتناول موضوع العلم في القرآن الكريم خمسة محاور: 1- علم الله سبحانه، 2- علم الملائكة عليهم السلام، 3- علم الأنبياء والرسل عليهم

السلام، 4- علم العلماء الربانيين والمؤمنين المتقين، 5- الله يعلم أنبياءه ورسله والمؤمنين المتقين.

1- علم الله سبحانه

يضم هذا المحور الجليل مطلبان وهما: أ- الله سبحانه عالم الغيب والشهادة، ب- الله عز وجل عالم وعليم وعلام الغيوب.

أ- الله سبحانه عالم الغيب والشهادة

إن الله العزيز الحكيم قد أحاط علمه الواسع المطلق بموضوعات الغيب كلها وبجميع ما يتصل بعالم الشهادة. قال الحق سبحانه: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَالشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ (الرعد 9). وقال جل وعلا: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوِيٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ (التوبة: 78).

إن عالَم الغيب قد استأثر الله عز وجل بعلمه لقوله سبحانه: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ (النمل 65)، أي؛ لا أحد من الناس ولا من الملائكة ولا من الجن؛ يعلم الغيب الذي انفرد بعلمه الحق سبحانه دون سواه. قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (لقمان 34).

وأحاط الله علما بكل عالم الشهادة بسائر أوصافه وتفاصيله وجزئياته وأسراره. بينما علم الإنسان به مقيد بإدراكه المحدود الذي لا يُطلعه إلا على مظاهر الأشياء التي هي في متناول حواسه. ولا مجال

للمقارنة بين ما أدركه وعلمه، وبين ما خفي وغاب عنه من أشياء وحقائق وأسرار عالم الشهادة.

ومما يدخل في علوم الغيب؛ علمه سبحانه بالشيء قبل وجوده، والأمر قبل حصوله ووقوعه. ذلك أن الله عز وجل قد قدر في الأزل كل أمور الغيب، وسطرها في اللوح المحفوظ لقوله سبحانه: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَالْأَرْضِۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴾ (الحج 70). فكل ما يحصل في عالم الغيب، وما يقع في عالم الشهادة، وما يحدث في الأرض مما قضاه الله وقدره؛ مثل إنزال الغيث من السماء، وتقسيم الأرزاق، وتصريف أنواع الابتلاءات، مسطر في اللوح المحفوظ، ومرهون بمشيئته وتقديره سبحانه ما أجلّه.

ب - الله سبحانه عالم وعليم وعلاّم الغيوب

إن الله عز وجل وصف نفسه بكونه عالما وعليما وعلاما للغيوب، مما يدل على كمال علمه، وسعته، وشموليته لكل شيء. وقد ورد إسمه "العالم" في القرآن الكريم ثلاث عشرة مرة. منها قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَالشَّهَٰدَةِۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ (الأنعام: 73).

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَالشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (التوبة: 94).

وَقَوْلُهُ: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَالشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴾ (الرعد: 9).

وَقَوْلُهُ: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَالشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (التغابن: 18).

وورد إسمه "العليم" فِي مِائَةٍ وَسَبْعَةٍ وَخَمْسِينَ مَوْضِعًا مِنَ الكِتَابِ مِنْهَا:

قَوله تَعَالَى: ﴿فَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لاَ عِلْمَ لَنَآ إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (البقرة: 32).

وقَول الحق سبحانه: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ اِ۬لصُّدُورِ﴾ (آل عمران: 154).

وقَالَ العلي القدير: ﴿وَأَنَّ اَ۬للَّهَ بِكُلِّ شَےْءٍ عَلِيمٌۖ﴾ (المائدة: 97).

وقَالَ الحي القيوم: ﴿بَلَىٰٓۖ إِنَّ اَ۬للَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَۖ﴾ (النحل: 28).

وقَالَ بديع السماوات والأرض: ﴿قُل رَّبِّے يَعْلَمُ اُ۬لْقَوْلَ فِے اِ۬لسَّمَآءِ وَالاَرْضِۖ وَهُوَ اَ۬لسَّمِيعُ اُ۬لْعَلِيمُۖ﴾ (الأنبياء: 4).

وقَالَ العزيز الحكيم: ﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۖ وَهُوَ اَ۬لْعَلِيمُ اُ۬لْقَدِيرُۖ ﴾ (الروم: 54).

وَقال السميع العليم: ﴿ وَكَفِىٰ بِاللَّهِ عَلِيماًۖ ﴾ (النساء: 70).

وَقَوْلُهُ: عز وجل: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِے لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَاۖ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ اُ۬لْعَزِيزِ اِ۬لْعَلِيمِ ﴾ (يس: 38) .

أَمَّا إسمه "عَلَّامُ الغيوب" فَقَدْ وَرَدَ فِي أَرْبَعةِ مَواضِعَ وَهِيَ:

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَالُواْ لاَ عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ اُ۬لْغُيُوبِ ﴾ (المائدة: 109).

وَقَوْلُهُ عز وجل: ﴿ تَعْلَمُ مَا فِے نَفْسِے وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِے نَفْسِكَۖ إِنَّكَ أَنتَ

عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ (المائدة: 116).

وَقَوْلُهُ عز وجل: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ (التوبة: 78).

وَقَوْلُهُ سبحانه: ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ (سبأ: 48).

يفيد إسم الله "العالم" على أنه سبحانه، يعلم جميع ما في السماوات وما في الأرض. ويعلم كل ما كان وما سيكون، وما لم يكن لو كان كيف سيكون. كما يدل هذا الإسم الجليل على أن الله عز وجل، محيط بظواهر الأمور والمخلوقات وبواطنها؛ ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَالشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴾ (الرعد 9).

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: "قال أبو بكرٍ يا رسولَ اللهِ مُرْني بشيءٍ أقولُه إذا أصبحتُ وإذا أمسيتُ قال قل اللهُمَّ عالمَ الغيبِ والشهادةِ فاطرَ السمواتِ والأرضِ ربَّ كلِّ شيءٍ ومليكَه أشهدُ أنْ لا إلهَ إلا أنتَ أعوذُ بكَ مِن شرِّ نفسي ومِن شرِّ الشيطانِ وَشِرْكِه قال قلْهُ إذا أصبحتَ وإذا أمسَيتَ وإذا أخذتَ مَضْجَعَكَ" [22]

وقرن الله عز وجل، إسمه "العلام" بعلمه الغيبَ في كل الآيات الأربعة التي ذكر فيها هذا الإسم الجليل. قال الحق سبحانه: ﴿قَالُواْ لاَ عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ (المائدة: 109)، وقال تعالى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ (المائدة: 116) وقال

[22] - سنن الترمذي، المرجع السابق، ج5، ص467.

تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوِيٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ (التوبة: 78). وقال تعالى: ﴿قُلِ اِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ (سبأ: 48).

ولا يخفى على المؤمن التقي أن تمثل الأسماء الإلهية الثلاثة: "عالم" و"عليم" و"علام الغيوب"، واستحضارها في القلب اسحضارا مقرونا بالخشية، يُحدث في باطنه ثمرات وآثارا إيمانية طيبة، تعينه على تزكية نفسه، وتثبيت عقيدة التوحيد في قلبه، والرضا بقضاء الله وقدره.

ومن هذه الثمرات الزكية؛ شعور المؤمن بأن الله عز وجل الرقيب قد أحاط علمه بسائر أحواله ما ظهر منها وما بطن. قال السميع العليم: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي اِلسَّمَٰوَٰتِ وَالاَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ اِلصُّدُورِ﴾ (التغابن 4). أي أن الله عز وجل قد أحاط علمه بما هو كائن في السماوات والأرض، وبما نعلنه من أقوال وأفعال، وبكل ما يجول في نفوسنا من الخواطر وأحاديث النفس، وما نُسره ونخفيه عن الناس. وهكذا فإن يقين العبد المؤمن برقابة الله وعلمه بما يخطر في باله، يحُثُّه على الخوف من الله سبحانه واجتناب نواهيه.

ومن الثمرات النفسية العزيزة؛ خضوع العبد المؤمن واستسلامه لمشيئة الله العليم الحكيم، حيث يرضى بقضاء الله سبحانه وقدره، لعلمه بأن ربه العليم أعلم بمصالحه منه، وأدرى بما ينفعه أو يضره. قال العليم الحكيم: ﴿وَعَسِيٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـٔاٗ وَهُوَ خَيْرٞ لَّكُمْ وَعَسِيٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـٔاٗ وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة 216). ولقد

سن النبي ﷺ لأمته صلاة الاستخارة التي بأدائها يستخير المسلم ربه في أموره، وفيما ينوي القيام به مما يتعلق بمصالحه. عن جابر رضي الله عنه قال: "كان رسولُ اللهِ ﷺ يُعلِّمُنا الاستخارةَ كما يُعلِّمُنا السُّورةَ مِن القُرآنِ يقولُ: (إذا هَمَّ أحَدُكم بالأمرِ فلْيركَعْ ركعتَيْنِ مِن غيرِ الفريضةِ ثمَّ لْيقُلِ: اللَّهمَّ إنِّي أستخيرُكَ بعِلْمِكَ وأستقدِرُكَ بقدرتِكَ وأسأَلُكَ مِن فضلِكَ العظيمِ فإنَّكَ تقدِرُ ولا أقدِرُ وتعلَمُ ولا أعلَمُ وأنتَ علَّامُ الغُيوبِ اللَّهمَّ فإنْ كُنْتَ تعلَمُ هذا الأمرَ - يُسمِّيه بعَينِه - خيرًا لي في دِيني ومَعاشي وعاقبةِ أمري فقدِّرْه لي ويسِّرْه لي وبارِكْ فيه وإنْ كان شرًّا لي في دِيني ومَعادي ومَعاشي وعاقبةِ أمري فاصرِفْه عنِّي واصرِفْني عنه وقدِّرْ لي الخيرَ حيثُ كان ورضِّني به".[23]

ومن آثار وفوائد استحضار معاني تلك الأسماء الإلهية الثلاثة: اجتهاد المسلم وسعيه لتحصيل العلم ومحبته، لعلمه أن الله يحب العلم والعلماء الذين يخشونه، وأنه سبحانه أمر عباده بالتعلم ونشر العلم والمعرفة، وأنه أثنى على العلماء، ورفع شأنهم ومقامهم ودرجاتهم. قال الحق سبحانه: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (المجادلة 11)، وقال عز وجل: "وقل رب زدني علما" (طه 114).

ومما يحسن التنبيه عليه كون التعبد لله عز وجل بأسمائه الحسنى وصفاته العلا؛ أعظم سبيل لتربية النفس وإصلاحها وتزكيتها، وأن أسنى

[23] - صحيح البخاري، المرجع السابق، ج2، ص56.

المقاصد وأنفع العلوم: العلم بمعاني وحقائق أسمائه وصفاته عز وجل. قال الحق سبحانه: ﴿وَلِلهِ اِلاَسْمَآءُ اُلْحُسْنيٰ فَادْعُوهُ بِهَاۖ﴾ (الأعراف 180) أي تعبدوا الله بها، وادعوه متوسلين بها إليه في قضاء حوائجكم، وتقربوا إليه سبحانه، بالتفقه في معانيها والعمل بمقتضاها. وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "أنَّ رَسولَ اللَّهِ ﷺ قالَ: إنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وتِسْعِينَ اسْمًا مِئَةً إلَّا واحِدًا، مَن أحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ".[24] والمراد بإحصائها؛ حفظ ألفاظها، والإحاطة بمعانيها، ودعاء الله سبحانه بها، والتعبد له بمقتضاها.

سبحان الحي القيوم الذي وصف نفسه بأنه "العليم الخبير"، و"العليم الحكيم". وعلمه الواسع المطلق اللامتناهي؛ أزلي وأبدي لا يحده زمان. وفي الصحيحين، عن أبي بن كعب رضي الله عنه عن النبي ﷺ، في قصة موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مع الخضر، قال: "وجاءَ عُصفورٌ فوقَع على حرْف السفينة، فنقَر في البحر نقرةً، فقال له الخضر: ما عِلمي وعلمك وفي رواية: وعِلم الخلائق في عِلم الله إلا مِثل ما نقَصَ هذا العُصفورُ من هذا البحْر"، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماًۖ﴾ (طه: 98). فلا مجال للمقارنة بين علم الله وعلم مخلوقاته من الملائكة، والجن، والإنس الذين لا يعلمون إلا ما علمهم الله.

ومن الآيات القرآنية التي تثبت صفة العلم لله عز وجل قوله سبحانه: ﴿هُوَ اُلاَوَّلُ وَالاَخِرُ وَالظَّٰهِرُ وَالْبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌۖ﴾

---

[24] - المرجع نفسه، ج3، ص198.

(الحديد 3)، وقوله: ﴿ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (التحريم 2)، وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ (سبأ 2)، وقوله: ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ (الأنعام 59)، **وقوله:** ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ﴾ (فاطر 11).

ومن الأمور العظيمة التي اختص الله بعلمها؛ أمر الساعة. قال المحيي والمميت سبحانه: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ (الأحزاب 63).

قال الإمام القرطبي رحمه الله: "قوله تعالى: يسألك الناس عن الساعة هؤلاء المؤذون لرسول الله ﷺ، لما توعدوا بالعذاب سألوا عن الساعة، استبعادا وتكذيبا، موهمين أنها لا تكون. قل إنما علمها عند الله أي أجبهم عن سؤالهم وقل علمها عند الله، وليس في إخفاء الله وقتها عني ما يبطل نبوتي، وليس من شرط النبي أن يعلم الغيب بغير تعليم من الله جل وعز. وما يدريك أي ما يعلمك. لعل الساعة تكون قريبا أي في زمان قريب. وقال ﷺ: "بعثت أنا والساعة كهاتين" وأشار إلى السبابة والوسطى، خرجه أهل الصحيح. وقيل: أي ليت الساعة تكون قريبا، فحذف هاء التأنيث ذهابا بالساعة إلى اليوم؛ كقوله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾، ولم يقل قريبة ذهابا بالرحمة إلى العفو، إذ ليس تأنيثها أصليا. وقد مضى هذا مستوفى. وقيل: إنما أخفى وقت الساعة ليكون العبد مستعدا لها في كل

وقت ".[25]

ورغم أن أحاديث كثيرة وردت عن النبي ﷺ فيما يخص أشراط الساعة وعلاماتها الصغرى والكبرى، فإن وقت قيامها مما استأثر به الحق سبحانه. وما على المسلم التقي إلا أن يستحضرها في قلبه ويجعلها نصب عينيه. نسأل الله حسن الخاتمة وبرد اليقين. قال الحق سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (1) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ(2) ﴾ (الحج 1-2).

وقال العليم الحكيم: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ (26) قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (27) ﴾ (الملك 25- 26). قال الإمام الطبري رحمه الله: "يقول تعالى ذكره لنبيه ﷺ: قل يا محمد لهؤلاء المستعجلين بالعذاب وقيام الساعة: إنما علم الساعة، ومتى تقوم القيامة عند الله لا يعلم ذلك غيره ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ يقول: وما أنا إلا نذير لكم أنذركم عذاب الله على كفركم به ﴿مُّبِينٌ ﴾ : قد أبان لكم إنذاره"[26].

[25] - الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله، محمد بن أحمد الأنصاري القرطبى، تحقيق: أحمد البردونى وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية – القاهرة، ط2، 1384 هـ - 1964 م. ج14، ص248.

[26] - جامع البيان عن تأويل آى القرآن، الطبري؛ أبو جعفر، محمد بن جرير الطبري (ت 310)، دار التربية والتراث - مكة المكرمة - ص.ب: 7780، د.ت. ج23، ص135.

2- علم الملائكة عليهم السلام

إن الله عز وجل قد جعل للبشر رسلا منهم مبشرين ومنذرين، يدعون أقوامهم إلى عبادة الله وحده، وإلى اتباع الصراط المستقيم، كما أرسل لهؤلاء الرسل رسلا من الملائكة يبلغونهم رسالات ربهم، ويوحون إليهم دينه وشرائعه. قال العليم الحكيم: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ (النحل 2). أي؛ أن الله سبحانه يرسل الملائكة الكرام السفراء بالوحي إلى من اختارهم من البشر أنبياء ورسلا لتبليغ رسالاته للناس منذرين إياهم. "والمراد بالملائكة هنا: جبريل - عليه السلام - ومن معه من حفظة الوحى.

أو المراد بهم جبريل خاصة، ولا مانع من ذلك، لأن الواحد قد يسمى باسم الجمع إذا كان رئيسا عظيما. والمراد بالروح: كلام الله - تبارك وتعالى - ووحيه الذي ينزل به جبريل، ليبلغه إلى من أمره الله بتبليغه إياه".[27]

وقد خص الله تعالى جبريل عليه السلام بالوحي، ونوَّه بوظيفته وأمانته حيث قال عز وجل: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (192) نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ (193) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ (194) ﴾ (الشعراء 193). و ﴿ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ هو جبريل عليه السلام المرسَل بالوحي إلى الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم.

وعلم الملائكة عليهم السلام قد أشارت إليه آيات بينات في كتاب الله

---

[27] - التفسير الوسيط للقرآن الكريم؛ محمد سيد طنطاوي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة – القاهرة، الطبعة: الأولى، 1997 - 1998 م. ج8، ص101.

العزيز؛ منها قوله جل وعلا: ﴿ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لاَ عِلْمَ لَنَآ إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (البقرة 32). ومنها قول العليم الحكيم: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِماَۢ بِالْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ (آل عمران 18). يستفاد من قرْن الله سبحانه شهادته بشهادة الملائكة وأولوا العلم، أن الملائكة الشهود على علم بما علمهم الله عز وجل فيما يخص هذه الشهادة العظيمة على قيام الله عز وجل بالقسط والعدل.

ومنها قوله وهو أصدق القائلين: ﴿ وَالْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي ٱلأَرْضِۗ﴾ (الشورى 5) أي؛ ينزهون الله عما لا يليق به وبجلاله وكماله، ويسألونه مغفرة ذنوب عباده المؤمنين. قال تعالى: ﴿ٱلذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُومِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلذِينَ ءَامَنُواْۖ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَےْءٖ رَّحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلذِينَ تَابُواْ وَاتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِۖ ﴾ (غافر7).

وتنزيههم لله سبحانه واستغفارهم للمؤمنين يدلان على علم الملائكة عليهم السلام، بعظمة وجلال من يسبحونه ويمجدونه، وعلمهم بخطر الذنوب ووبالها على أصحابها من المؤمنين.

ومنها كذلك قول الحق سبحانه: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ (10) كِرَاماً كَٰتِبِينَ (11) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (12) ﴾ (الانفطار 11): إنهم الملائكة الحفظة الموكلون بمراقبة أعمال العباد، وكتابة أقوالهم وأفعالهم، فهم عليهم السلام، يعلمون كل ما يصدر عن البشر من أقوال

وأفعال. وهذا جانب أو مظهر من مظاهر علمهم. فسبحان من خلقهم من نور، وجبلهم على التسبيح لا يفترون، وعلمهم مما يشاء.

3- علم الأنبياء والرسل عليهم السلام

إن من مقتضى الإيمان بالله عز وجل؛ أن نصدقه بكل ما أوحى به إلى أنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام، وبكل ما هو مسطر في الكتب المنزلة من عنده عز وجل. قال الحق سبحانه: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ ۚ﴾ (البقرة 285). وكل من النبي والرسول يوحى إليه، غير أن الرسول قد أنزل الله عليه كتابا من عنده سبحانه يحتوي على شريعة إلهية. بينما النبي لم ينزل عليه كتاب من الله عز وجل، وإنما اتبع شريعة رسول سابق له. وكل رسول نبي، ولا يلزم أن يكون كل نبي رسولا. وأتباع الرسل كُثُر في حين أن أتباع الأنبياء قليلون. عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "قال رسول الله ﷺ: عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ، فَجَعَلَ النبيُّ والنَّبيَّانِ يَمُرُّونَ معهُمُ الرَّهْطُ، والنَّبيُّ ليسَ معهُ أحَدٌ، حتَّى رُفِعَ لي سَوَادٌ عَظِيمٌ، قُلتُ: ما هذا؟ أُمَّتي هذِه؟ قيلَ: بَلْ هذا مُوسَى وقَوْمُهُ، قيلَ: انْظُرْ إلى الأُفُقِ، فَإِذَا سَوَادٌ يَمْلَأُ الأُفُقَ، ثُمَّ قيلَ لِي: انْظُرْ هَاهُنَا وهَاهُنَا في آفَاقِ السَّمَاءِ، فَإِذَا سَوَادٌ قدْ مَلَأَ الأُفُقَ، قيلَ: هذِه أُمَّتُكَ، ويَدْخُلُ الجَنَّةَ مِن هَؤُلَاءِ سَبْعُونَ أَلْفًا بغَيْرِ حِسَابٍ. ثُمَّ دَخَلَ ولَمْ يُبَيِّنْ لهمْ، فأفَاضَ القَوْمُ، وقالوا: نَحْنُ الَّذِينَ آمَنَّا باللَّهِ واتَّبَعْنَا رَسولَهُ، فَنَحْنُ هُمْ، أوْ أوْلَادُنَا الَّذِينَ وُلِدُوا في الإسْلَامِ؛ فإنَّا وُلِدْنَا في الجَاهِلِيَّةِ، فَبَلَغَ النَّبيَّ ﷺ فَخَرَجَ، فَقالَ: هُمُ الَّذِينَ لا يَسْتَرْقُونَ، ولَا يَتَطَيَّرُونَ، ولَا يَكْتَوُونَ، وعلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ، فَقالَ عُكَاشَةُ بنُ مِحْصَنٍ:

أمِنْهُمْ أنَا يا رَسولَ اللَّهِ؟ قالَ: نَعَمْ، فَقَامَ آخَرُ فَقالَ: أمِنْهُمْ أنَا؟ قالَ: سَبَقَكَ بهَا عُكَّاشَةُ"[28].

وحاجة الناس إلى الرسل كحاجتهم إلى الطعام والشراب. ولولا أن الله عز وجل أنزل كتبه وشرَّع شرائعه، لما عرف العباد ربهم، ولضلوا وأضلوا، وأفسدوا وهلكوا. وأحوال المشركين والمعرضين عن دين الله سبحانه، في كل زمان، خير دليل على ضلالهم وكفرهم وفسادهم. قال العزيز الحكيم: ﴿لَقَدَ اَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ اُلْكِتَٰبَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ اَلنَّاسُ بِالْقِسْطِۖ﴾ (الحديد 24). وقال العليم الخبير: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَۖ﴾ (الأنبياء 107).

إن الأنبياء والرسل عليهم السلام، أعلم الناس قاطبة، لأنهم تلقوا الوحي من الله عز وجل، وكفى بالوحي علما. وعلمهم المستفاد من الوحي الإلهي يتجلى في دعوة أقوامهم إلى عبادة الله وحده، وفي منهج نشرهم وتعليمهم لرسالة التوحيد، وفي أساليب تربيتهم لمخاطبيهم وتزكية نفوسهم وتطهيرها من الشرك والوثنية والجهل. قال الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا اَلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَۖ ﴾ (المائدة 67). أي: بلغ شريعة الله لعباده، وبين لهم معانيها كي يهتدوا ويعملوا بأحكامها؛ ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ اَلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَۖ﴾ (النحل 44).

ثم إن الأنبياء والرسل دعوا الناس إلى عبادة الله وحده بالحكمة والإحسان: ﴿اَدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ اِلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم

[28] - صحيح مسلم، المرجع السابق، ج1، ص199.

بِالتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (النحل 125). إن هذه الوظيفة الرسالية العظيمة قامت على أسس الوحي والعلم الرباني الذي أكرم الله به أنبياءه ورسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. ومن الآيات الدالة على علمهم، قول الله عز وجل على لسان إبراهيم عليه السلام مخاطبا أباه آزر: ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَاتِكَ فَاتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطاً سَوِيّاً ﴾ (مريم 43). أي؛ أن الله قد منحني من العلم بما أوحى إلي ما لم يعطك، وأطلعني على ما لا تعلمه. وقال الرحمن الرحيم على لسان يعقوب عليه السلام: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيَ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ (يوسف 86). وقال الحق سبحانه: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمُۥ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة 151)؛ يعلمكم ما جاء في كتاب الله العزيز، وما يشتمل عليه من أسباب الهداية، وما يحويه من الأخبار والأحكام، والمواعظ والحِكَم الجامعة لخيري الدنيا والآخرة. ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمونه مما ينفعكم في معاشكم ومعادكم. فأكرم به من علم علِمَه أنبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام، ووظفوه في هداية الناس إلى الصراط المستقيم، مقرونة بتربيتهم وتعليمهم، وتزكية نفوسهم وتطهيرها.

ولقد بعث الله رسله وأنبياءه للناس مبشرين ومنذرين، ومبلغين عنه رسالة التوحيد والعبودية. وأكرمهم سبحانه بما علمهم إياه من خلال وحيه العظيم. وكل الأنبياء والرسل مكرمون مع تفضيل بعضهم على بعض، كما قال الله تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ﴾ (البقرة 251). وقال عز وجل:

﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ (الإسراء 55).

وأول من أكرمه الله بالعلم من الأنبياء؛ آدم عليه السلام. قال الحق سبحانه: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْاَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِے بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ ان كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ (البقرة 30). وقال سبحانه في شأن رسولنا محمد صلوات الله وسلامه عليه: ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اُللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً ﴾ (النساء 113). وقال أيضا: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلِ اِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ وَلَئِنِ إِتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلذِے جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ (البقرة120). قال المفسر عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "يخبر تعالى رسوله أنه لا يرضى منه اليهود ولا النصارى إلا باتباعه دينهم، لأنهم دعاة إلى الدين الذي هم عليه ويزعمون أنه الهدى، فقل لهم: ﴿اِنَّ هُدَى ٱللَّهِ﴾ الذي أرسلت به هُوَ الْهُدَى وأما ما أنتم عليه فهو الهوى بدليل قوله: ﴿وَلَئِنِ إِتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلذِے جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ فهذا فيه النهي العظيم عن اتباع أهواء اليهود والنصارى، والتشبه بهم فيما يختص به دينهم، والخطاب وإن كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن أمته داخلة في ذلك، لأن الاعتبار بعموم المعنى لا بخصوص المخاطب، كما أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب"[29].

---

[29] - تيسير الكريم الرحمن فى تفسير كلام المنان؛ عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدى (ت 1376هـ)، المحقق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى 1420هـ - 2000 م. ص64.

وقال العليم الحكيم في شأن يوسف عليه السلام: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ (يوسف 68). وقال سبحانه منعما على موسى عليه السلام: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَاسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْماً وَعِلْماًۖ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِے ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (القصص 13).

وكان النبي عليه الصلاة والسلام إذا استيقظ في الليل يدعو فيقول: "لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ أَسْتَغْفِرُكَ لِذَنْبِي، وَأَسْأَلُكَ رَحْمَتَكَ، اللَّهُمَّ زِدْنِي عِلْمًا، وَلَا تُزِغْ قَلْبِي بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنِي، وَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً، إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ". وأُثر عن النبي ﷺ دعاءٌ آخر: "اللَّهُمَّ انْفَعْنِي بِمَا عَلَّمْتَنِي وَعَلِّمْنِي مَا يَنْفَعُنِي وَزِدْنِي عِلْمًا الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ وَأَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ حَالِ أَهْلِ النَّار. وكان ﷺ يقول: "لا بورك لي في طلوع شمس يومٍ لم أزدد فيه من الله علماً ". لقد كان رسولنا ﷺ واسع العلم، عظيم الفهم، أفاض الله تعالى عليه العلوم النافعة الكثيرة، والمعارف العالية الوفيرة، فقال الله عز وجل: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُۖ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماًۖ ﴾ (النساء 113).

إن مصدر علم الأنبياء والرسل هو الوحي الإلهي، لذا تميز علمهم صلوات الله وسلامه عليهم، بالفهم الصحيح لحقائق الأمور، والصواب المطلق في الحكم على الأشياء، وحسن استعمال الحكمة في تدبير أمور الرعية، لا سيما أنهم معصومون عن الوقوع في الأخطاء التي يقع فيها غيرهم من البشر. لقد اصطفاهم الله واجتباهم، وهيأهم للقيام بنشر

رسالة التوحيد، ودعوة الناس إلى نبذ الشرك وعبادة الله وحده.

4- علم العلماء الربانيين والمؤمنين المتقين

العلماء الربانيون هم المبلغون عن رب العالمين، والموقعون عنه سبحانه. وهم الذين قُرِنت شهادتهم بشهادة الله عز وجل وشهادة ملائكته عليهم السلام. قال الحق جل وعلا: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ (آل عمران 18). قال الإمام محمد بن القيم رحمه الله: " ولما كان قيام الإسلام بطائفتي العلماء والأمراء، وكان الناس كلّهم لهم تبعًا، كان صلاح العالم بصلاح هاتين الفئتين، وفساده بفسادهما، كما قال عبد الله بن المبارك وغيره من السلف: صنفان من الناس إذا صلحا صلح الناس، وإذا فسدا فسد الناس، قيل: من هم؟، قال: الملوك والعلماء" .

والعلماء الربانيون هم الذين يحرسون الدين من الابتداع والتحريف والتزييف، وينفون عن كتاب الله تحريف الغالين، وتأويل الجاهلين. إنهم خلفاء الرسول ﷺ في أمته.

ما الفضل إلا لأهل العلم إنهمُ — على الهدى لمن استهدى أدلاء

وقدر كل امرئ ما كان يحسنه — والجاهلون لأهل العلم أعداء

ففز بعلم تعش حيا به أبدا — الناس موتى وأهل العلم أحياء

ومن الآيات المشيرة إلى علم العلماء الربانيين؛ قوله عز وجل: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًاۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ

إِلاَّ ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ (القصص 80). ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ أي؛ أي علمهم الله وأطلعهم على كثير من الحقائق، وشرح قلوبهم للزهد في الدنيا ومحبة الآخرة وثوابها؛ "ثواب الله خير" وهو ما أعده لعباده المؤمنين المتقين من نعيم الجنة والنظر إلى وجه الله الكريم.

ومن تلك الآيات أيضا؛ قول العليم الحكيم: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌ بَيِّنَٰتٌ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ﴾ (العنكبوت 49). "أي: هذا الكتاب ليس أساطير الأولين اكتتبها الرسول ﷺ كما زعم المبطلون، بل هو آيات بينات واضحات راسخات، في صدور المؤمنين به، الذين حفظوه وتدبروه وعملوا بتوجيهاته وإرشاداته، وعملوا بما فيه من حكم وأحكام وعقائد وآداب.

ووصف الله، تبارك وتعالى، المؤمنين بهذا القرآن بالعلم على سبيل المدح لهم، والإعلاء من شأنهم، حيث استطاعوا عن طريق ما وهبهم سبحانه، من علم نافع، أن يوقنوا بأن هذا من عند الله، ولو كان من عند غير الله، لوجدوا فيه اختلافا كثيرا"[30].

ومن الآيات الدالة على علم العلماء الربانيين وفضلهم، قول الحق سبحانه: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (النحل 43). ذهبت طائفة من المفسرين إلى أن أهل الذكر في هذه الآية هم أهل الكتاب، أي؛ أهل التوراة والإنجيل. لكن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، يعني أن لفظ أهل الذكر شامل لكل ذي علم ناصح أمين، دال على الطريق المستقيم، وداع إلى عبادة رب العالمين. قال المفسر عبد الرحمن

[30] - التفسير الوسيط، المرجع السابق، ج11، ص48.

ناصر السعدي رحمه الله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ ﴾ {أي: الكتب السابقة} ﴿إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ {نبأ الأولين}، وشككتم هل بعث الله رجالا؟ فاسألوا أهل العلم بذلك الذين نزلت عليهم الزبر والبينات فعلموها وفهموها، فإنهم كلهم قد تقرر عندهم أن الله ما بعث إلا رجالا يوحي إليهم من أهل القرى، وعموم هذه الآية فيها مدح أهل العلم، وأن أعلى أنواعه العلم بكتاب الله المنزل. فإن الله أمر من لا يعلم بالرجوع إليهم في جميع الحوادث، وفي ضمنه تعديل لأهل العلم وتزكية لهم حيث أمر بسؤالهم، وأن بذلك يخرج الجاهل من التبعة، فدل على أن الله ائتمنهم على وحيه وتنزيله، وأنهم مأمورون بتزكية أنفسهم، والاتصاف بصفات الكمال. وأفضل أهل الذكر أهل هذا القرآن العظيم، فإنهم أهل الذكر على الحقيقة، وأولى من غيرهم بهذا الاسم".[31]

هذا وإن العلماء الربانيين، مصابيح الهدى، متصفون بالصدق والإخلاص، والرسوخ في العلم، ويخشون الله في السر والعلن، ويحرصون أشد الحرص على تعليم الناس ونصحهم وإرشادهم. كما أنهم يتخلقون بالإنصاف والتواضع ولين الجانب، ويجتنبون المراء والجدل.

وقال الحي القيوم: ﴿وَالرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلآَّ أُوْلُواْ ٱلاَلْبَٰبِۗ﴾ (آل عمران 7). وقال الشكور الحليم: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لاَ إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِماًۢ بِالْقِسْطِۗ لاَ إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُۖ﴾ (آل عمران 18). وقال العلي

---

[31] - تفسير السعدي، المرجع السابق، ص441.

الكبير: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ (المجادلة 11). وقال الملك الحق المبين: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ (سبأ 6). وقال العليم الحكيم: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ (فاطر 28).

وخشية الله محلها القلب التقي النقي. وهي من أعظم الأحوال والمقامات التي تقوم عليها العبادة والطاعة، وبها ينزجر المؤمن عن ارتكاب الذنوب وغشيان المعاصي. وإذا وفق العبد لخشية الله والخوف من وعيده، خضعت جوارحه لأوامره سبحانه، ولبت نداء الطاعة والإيمان، واستجابت لما يوقظ قلبه من الغفلة والتقصير في طاعة الله سبحانه. وإذا كانت خشية الله تسكن قلوب المتقين، فهي أشد وأقوى تعلقا بقلوب العلماء منهم؛ قال الحق سبحانه: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ (فاطر28). قال المفسر ابن كثير رحمه الله: "إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به؛ لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير الموصوف بصفات الكمال المنعوت بالأسماء الحسنى، كلما كانت المعرفة به أتم، والعلم به أكمل، كانت الخشية له أعظم وأكثر".[32]

وإذا كان العلماء الربانيون أحرص الناس على القيام بما أوجبه الله وفرضه على عباده، وأكثرهم حرصا على نفع العباد وجلب الخير لهم في الدنيا والآخرة، لكونهم ورثة الأنبياء وحاملي لواء رسالة التوحيد من

---

[32] - تفسير القرآن العظيم؛ ابن كثيرعماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (ت 774 هج)، وضع حواشيه وعلق عليه: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، 1419 هـ 1998 م، ج6، ص482.

بعدهم، فلا يستغرب من وجود علماء السوء الذين أخلدوا إلى الأرض واتبعوا شهواتهم وأهواءهم، وباعوا آخرتهم بدنياهم. وإليهم أشار نبينا صلوات الله وسلامه عليه، حيث قال: "إنَّ أوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَومَ القِيامَةِ عليه رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ به فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَها، قالَ: فَما عَمِلْتَ فيها؟ قالَ: قاتَلْتُ فِيكَ حتَّى اسْتُشْهِدْتُ، قالَ: كَذَبْتَ، ولَكِنَّكَ قاتَلْتَ لأَنْ يُقالَ: جَرِيءٌ، فقَدْ قيلَ، ثُمَّ أُمِرَ به فَسُحِبَ على وجْهِهِ حتَّى أُلْقِيَ في النَّارِ، ورَجُلٌ تَعَلَّمَ العِلْمَ، وعَلَّمَهُ وقَرَأَ القُرْآنَ، فَأُتِيَ به فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَها، قالَ: فَما عَمِلْتَ فيها؟ قالَ: تَعَلَّمْتُ العِلْمَ، وعَلَّمْتُهُ وقَرَأْتُ فِيكَ القُرْآنَ، قالَ: كَذَبْتَ، ولَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ العِلْمَ لِيُقالَ: عالِمٌ، وقَرَأْتَ القُرْآنَ لِيُقالَ: هو قارِئٌ، فقَدْ قيلَ، ثُمَّ أُمِرَ به فَسُحِبَ علَى وجْهِهِ حتَّى أُلْقِيَ في النَّارِ، ورَجُلٌ وسَّعَ اللَّهُ عليه، وأَعْطاهُ مِن أصْنافِ المالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ به فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَها، قالَ: فَما عَمِلْتَ فيها؟ قالَ: ما تَرَكْتُ مِن سَبِيلٍ تُحِبُّ أنْ يُنْفَقَ فيها إلَّا أنْفَقْتُ فيها لَكَ، قالَ: كَذَبْتَ، ولَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقالَ: هو جَوادٌ، فقَدْ قيلَ، ثُمَّ أُمِرَ به فَسُحِبَ علَى وجْهِهِ، ثُمَّ أُلْقِيَ في النَّار"[33].

إن مما يستفاد من هذا الحديث النبوي الجليل؛ أن الإخلاص في العمل شرط أساسي لقبوله. والله يرد عمل العبد إذا لم يبتغ به وجهه الكريم، وكان مرائيا بعمله راغبا في ثناء الناس عليه. هذا وإن كثيرا من علماء الدنيا اهتموا بالحفظ والتحصيل، ومالوا عن جوهر العلم الذي هو خشية الله عز وجل. وفي هذا المعنى يقول الفقيه العلامة أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي رحمه الله: "رأيت أكثر العلماء مشتغلين بصورة

---

[33] - صحيح مسلم، المرجع السابق، ج3نص1513.

العلم دون فهم حقيقته ومقصوده؛ فالقارئ مشغول بالروايات، عاكف على الشواذ، يرى أن المقصود نفس التلاوة، ولا يتلمح عظمة المتكلم، ولا زجر القرآن ووعده، وربما ظن أن حفظ القرآن يدفع عنه، فتراه يترخص في الذنوب، ولو فهم، لعلم أن الحجة عليه أقوى ممن لم يقرأ!

والمحدث يجمع الطرق، ويحفظ الأسانيد، ولا يتأمل مقصود المنقول، ويرى أنه قد حفظ على الناس الأحاديث، فهو يرجو بذلك السلامة، وربما ترخص في الخطايا، ظنًّا منه أن ما فعل في الشريعة يدفع عنه!

والفقيه قد وقع له أنه بما قد عرف من الجدال، الذي يقوي به خصامه، أو المسائل التي قد عرف فيها المذهب، قد حصل بما يفتي به الناس ما يرفع قدره، ويمحو ذنبه؛ فربما هجم على الخطايا، ظنًّا منه أن ذلك يدفع عنه! وربما لم يحفظ القرآن، ولم يعرف الحديث، وأنهما ينهيان عن الفواحش بزجر ورفق، وينضاف إليه -مع الجهل بهما- حب الرئاسة، وإيثار الغلبة في الجدل، فتزيد قسوة قلبه! وعلى هذا أكثر الناس، صور العلم عندهم صناعة، فهي تكسبهم الكبر والحماقة. (...). وهؤلاء لم يفهموا معنى العلم، وليس العلم صور الألفاظ، إنما المقصود فهم المراد منه، وذلك يورث الخشية والخوف، ويُري المنة للمنعم بالعلم وقوة الحجة له على المتعلم، نسأل الله عز وجل يقظة تُفهمنا المقصود وتُعرفنا المعبود. ونعوذ بالله من سبيل رَعاع يتسمَّون بالعلماء، لا ينهاهم ما يحملون، ويعلمون ولا يعملون، ويتكبرون على الناس بما لا يعلمون،

ويأخذون عرض الأدنى وقد نهوا عما يأخذون."[34]

ومن ناحية أخرى، هناك اختلاف جوهري بين مفهوم العالم في الإسلام والعالم في الثقافة الغربية المعاصرة. فالعالم في التصور الإسلامي هو الذي تتوفر فيه بالإضافة إلى تخصصه، شروط ومميزات أساسية أهمها: العلم بمبادئ الدين، وخشية الله تعالى. قال سبحانه تعالى: "إنما يخشى الله من عباده العلماء". ومفهوم الآية أن من لا يخشى الله ليس عالما، ولو بلغ ما بلغ في مجال العلم والمعرفة. "فلا يصح اعتبار الملحد المتخصص في الفيزياء عالما، مهما بلغت شهرته، بل هو مهني ماهر في مهنته، وليس إلا فيزيائيا قحا، وهو كالنجار الفنان الذي يعالج قطع الأخشاب ليشكل منها ما يثير إعجاب من لا يتقن حرفة النجارة، ومحترفو الكيمياء والفيزياء يتقنون صنعتهم لدرجة تبهر البسطاء أو غير المتخصصين....، وكذلك الذي يحفظ النصوص الدينية ويوظفها في إخراج الفتاوى التي تخدم أغراض السلطان، والقانوني الذي يشارك في صياغة القوانين الظالمة.... كل هؤلاء وأمثالهم العلم الحقيقي منهم براء وهم في الحقيقة وباء".[35]

ويشهد لما قال هذا الكاتب قوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (5) يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ (6) ﴾ (الروم 7).

---

[34] - صيد الخاطر؛ جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن على بن محمد الجوزى (ت 597هـ)، بعناية: حسن المساحي سويدان، دار القلم – دمشق الطبعة: الأولى 1425هـ - 2004م، ص449.

[35] - د. هانئ عبد الرحمن مكروم، "العقل تنظيمه وإداراته"، القاهرة 1417/1997، ص 343.

ثم إن هذا الانحراف والانتكاس في مفهوم العالم في الثقافة العربية المعاصرة، يرجع إلى انتشار واستفحال حركتي الاستغراب والتغريب في العالم الإسلامي. وبما أن الضعيف مولع بتقليد القوي على حد تعبير العلامة ابن خلدون، فإن كثيرا من المصطلحات والمفاهيم التي تزخر بها ثقافتنا العربية والإسلامية، قد أصابها داء التحريف والتشويه. وهكذا أفرغ مفهوم العالم عندنا من محتواه الروحي، والإيماني، والعقدي، تأسيا واحتذاء بالغربيين. فلا عجب إذا سمعنا أن فلانا يمنح لقب العالم، وهو يكن المودة لليهود والنصارى، أو يخالف إجماع العلماء في مسائل وقضايا مشهورة أو معلومة من الدين بالضرورة، أو يؤول نصا قطعيا من نصوص الشرع تأويلا يناسب أهواءه، أو يجاهر ببعض الميولات العلمانية، أو ينتصر للضلالات والخرافات، إلى غير ذلك مما يتصف به كثير من مدعي العلم في هذا الزمن الذي أصبح فيه العالم الحق كالكبريت الأحمر.

ولقد كان للتيار العلماني أثر كبير في خلخلة مفهوم العلم وثوابته في العالم أجمع. إن القطيعة الروحية والمعرفية التي أحدثها مفكرو وفلاسفة النهضة الأوربية الحديثة بين الإنسان والسماء، وبين عالم الشهادة وعالم الغيب، وبين الخلق وخالقه؛ إن هذه القطيعة الخطيرة التي انبثق منها مذهب العلمانية والإلحاد، وألوان من الفلسفات المادية واللادينية، قلصت مجال العلم وحصرته في مساحة ضيقة جدا؛ هي عالم الشهادة المحسوس، وأنكرت وجود عالم الغيب الذي من عناصره الروح، وحياة البرزخ والجنة والنار وعالم الملائكة، وما يتعلق بيوم

القيامة والحساب.

وروى الإمام أحمد وأصحاب السنن عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: "إن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما، إنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر"[36]. يستخلص من هذا الحديث النبوي أن العلماء الأتقياء الربانيين ورثوا العلم عن الأنبياء، وعملوا به، وساروا على نهجهم في الدعوة إلى الله ونشر رسالة الإسلام.

وقال العليم الحكيم: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ (آل عمران 18). "هذا تقرير من الله تعالى للتوحيد بأعظم الطرق الموجبة له، وهي شهادته تعالى وشهادة خواص الخلق وهم الملائكة وأهل العلم، أما شهادته تعالى فيما أقامه من الحجج والبراهين القاطعة على توحيده، وأنه لا إله إلا هو، فنوع الأدلة في الآفاق والأنفس على هذا الأصل العظيم، ولو لم يكن في ذلك إلا أنه ما قام أحد بتوحيده إلا ونصره على المشرك الجاحد المنكر للتوحيد، وكذلك إنعامه العظيم الذي ما بالعباد من نعمة إلا منه، ولا يدفع النقم إلا هو، والخلق كلهم عاجزون عن المنافع والمضار لأنفسهم ولغيرهم، ففي هذا برهان قاطع على وجوب التوحيد وبطلان الشرك، وأما شهادة الملائكة بذلك فنستفيدها بإخبار الله لنا بذلك وإخبار رسله، وأما شهادة أهل العلم فلأنهم هم المرجع في جميع الأمور الدينية خصوصا في أعظم الأمور وأجلها وأشرفها وهو التوحيد، فكلهم من أولهم إلى

---

[36] - سبق تخريجه.

آخرهم قد اتفقوا على ذلك ودعوا إليه وبينوا للناس الطرق الموصلة إليه، فوجب على الخلق التزام هذا الأمر المشهود عليه والعمل به، وفي هذا دليل على أن أشرف الأمور علم التوحيد لأن الله شهد به بنفسه وأشهد عليه خواص خلقه، والشهادة لا تكون إلا عن علم ويقين، بمنزلة المشاهدة للبصر، ففيه دليل على أن من لم يصل في علم التوحيد إلى هذه الحالة فليس من أولي العلم. وفي هذه الآية دليل على شرف العلم من وجوه كثيرة، منها: أن الله خصهم بالشهادة على أعظم مشهود عليه دون الناس."[37]

إن العلماء الربانيين المتقين ورثة الأنبياء، يستلهمون آراءهم، وفقههم، ومواقفهم الصائبة، من القرآن الكريم، ومن مشكاة النبوة. ولقد أيدهم الله وقوى عزيمتهم، وأعانهم على القيام بواجب الدعوة، ونشر نور التوحيد. كما جعلهم قدوة للأمة؛ وذلك من خلال موافقة أعمالهم لأقوالهم، وتحليهم بالأخلاق الحسنة والصفات الحميدة، واعتزازهم بالدين، وزهدهم في الدنيا. ولشدة ورعهم وتقواهم؛ عظمت مكانتهم في قلوب الناس، فاقتدوا بهم، وتهافتوا على مجالسهم يستمعون لدروسهم ومواعظهم. وإذا مات أحدهم، اهتزت لموته المدن والقرى من بلاد المسلمين، وشيع جنازته خلق عظيم، مثل ما حدث في جنازة الإمام أحمد ابن حنبل، أو شيخ الإسلام أحمد بن تيمية رحمهما الله، حيث شهد جنازتهما عشرات الألوف من المسلمين. ولا زلت أتذكر الجنازة المهيبة لشيخي وأستاذي محمد بوخبزة الحسني التطواني، حين هرع أهل

---

[37] - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، المرجع السابق، ص124.

مدينة تطوان عن بكرة أبيهم، لاتباعها والصلاة على عالمها وفقيهها ومربي شبابها، فضاقت شوارع المدينة بالمسلمين من محبي الشيخ الفقيد وهم يتجهون نحو المقبرة. لقد كان يوما مشهودا. وكانت وفاته صباح اليوم الخميس 4 جمادى الثانية 1441هـ الموافق ل 30 يناير 2020م. رحم الله علامة تطوان وفقيهها ومحيي السنة في ربوعها.

والخلاصة ألا وظيفة أسمى منزلة وأشرف قدرًا، وأعظم أجرًا عند الله، من وظيفة العالِم الرباني؛ وذلك لأنه عمود من أعمدة المجتمع المسلم، لقيامه بتكاليف الدعوة إلى الله، وتربية المسلمين، وتزكيتهم، وتعليمهم، والأخذ بأيديهم، وإرشادهم إلى تحقيق الحياة السعيدة في الدنيا والآخرة.

5- الله عزوجل يعلم أنبياءه ورسله والمؤمنين المتقين

أ- الله يُعلِّم أنبياءه ورسله

ورد في القرآن الكريم آيات بينات تدل على أن الله العليم الحكيم يعلم أنبياءه ورسله والمؤمنين الصالحين. منها قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْاَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ (البقرة 31). وقول العلي القدير: ﴿ رَبِّ قَدَ ـاتَيْتَنِے مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِے مِن تَاوِيلِ ٱلْاَحَادِيثِۖ ﴾ (يوسف 101). وقوله عز وجل مخاطبا نبيه عيسى عليه السلام: ﴿ إِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرِيٰةَ وَالِانجِيلَۖ ﴾ (المائدة 110). وقال الحق سبحانه في شأن رسوله محمد ﷺ: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُۖ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماًۖ﴾ (النساء 113). وقال العليم

الحكيم مخاطبا وآمراً عباده: ﴿وَاتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ ﴾ (البقرة 282).

﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡاَسۡمَآءَ كُلَّهَا﴾، أي؛ أن الله عز وجل شرف نبيه آدم عليه السلام بتعليمه أسماء الأشياء، ورفع بذلك شأنه، وأظهره على الملائكة الذين عرفوا قدره ومكانته حين أخبرهم بأسماء تلك الأشياء، هنالك قالوا معبرين عن قصور علمهم: ﴿ قَالُواْ سُبۡحَـٰنَكَ لاَ عِلۡمَ لَنَآ إِلاَّ مَا عَلَّمۡتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُۖ﴾ (البقرة 32).

وقال الله عز وجل على لسان نبيه يوسف عليه السلام: ﴿رَبِّ قَدَ ـاتَيۡتَنِے مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِے مِن تَاوِيلِ اِ۬لَاحَادِيثِۖ﴾ (يوسف 101). فبعد أن ابتلى الله نبيه يوسف عليه السلام حين ألقاه إخوته في البئر، وابتلاه بامرأة العزيز التي تعلق قلبها به، وراودته عن نفسه فاستعصم وأبى، ثم ابتلاه سبحانه بالسجن بضع سنين، أكرمه بالملك وعلمه تأويل الرؤى والأحلام، والله لا يضيع أجر المحسنين.

وعلم الله سبحانه عبده الخضر عليه السلام، إذ يقول في شأنه: ﴿فَوَجَدَا عَبۡداً مِّنۡ عِبَادِنَآ ءَاتَيۡنَـٰهُ رَحۡمَةً مِّنۡ عِندِنَا وَعَلَّمۡنَـٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡماًۖ ﴾ (الكهف 65).

ذكر العلامة الفقيه محمد بن قيم الجوزية رحمه الله، كلاما مفيدا في العلم اللدني يحسن الاستشهاد به:

"والعلم اللدني ثمرة العبودية والمتابعة، والصدق مع الله، والإخلاص له، وبذل الجهد في تلقي العلم من مشكاة رسوله. وكمال الانقياد له. فيفتح له من فهم الكتاب والسنة بأمر يخصه به، كما قال علي بن أبي

طالب رضي الله عنه . وقد سئل" هل خصكم رسول الله ﷺ بشيء دون الناس؟ . فقال: والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة، إلا فهما يؤتيه الله عبدا في كتابه" فهذا هو العلم اللدني الحقيقي.

وأما علم من أعرض عن الكتاب والسنة، ولم يتقيد بهما: فهو من لدن النفس والهوى، والشيطان، فهو لدني. لكن من لدن من؟ إنما يعرف كون العلم لدنيا رحمانيا: بموافقته لما جاء به الرسول ﷺ عن ربه عز وجل. فالعلم اللدني نوعان: لدني رحماني، ولدني شيطاني بطناوي. والمحك هو الوحي. ولا وحي بعد رسول الله ﷺ.

وأما قصة موسى مع الخضر عليهما السلام: فالتعلق بها في تجويز الاستغناء عن الوحي بالعلم اللدني إلحاد، وكفر مخرج عن الإسلام، موجب لإراقة الدم.

والفرق: أن موسى لم يكن مبعوثا إلى الخضر. ولم يكن الخضر مأمورا بمتابعته. ولو كان مأمورا بها لوجب عليه أن يهاجر إلى موسى ويكون معه، ولهذا قال له "أنت موسى نبي بني اسرائيل؟ قال: نعم" ومحمد ﷺ مبعوث إلى جميع الثقلين. فرسالته عامة للجن والإنس، في كل زمان ومكان. ولو كان موسى وعيسى عليهما السلام حيين لكانا من أتباعه. وإذا نزل عيسى ابن مريم عليهما السلام؛ فإنما يحكم بشريعة محمد ﷺ.

فمن ادعى أنه مع محمد ﷺ كالخضر مع موسى، أو جوز ذلك لأحد من الأمة: فليجدد إسلامه، وليشهد شهادة الحق، فإنه بذلك مفارق لدين

الاسلام بالكلية. فضلا عن أن يكون من خاصة أولياء الله. وإنما هو من أولياء الشيطان وخلفائه ونوابه"[38]

نستخلص من هذه الإشكالية المعرفية التي جادل فيها الفقهاء خصومهم الصوفية، أن العبد المسلم يمكنه الظفر ببعض الثمرات العلمية والمعرفية من طريق العلم اللدني. بيد أن هذه المعرفة اللدنية ينبغي تمحيصها، والتأكد من صحتها، بعرضها على الكتاب والسنة، إذ لا وحي بعد رسول الله ﷺ. والمعرفة اللدنية الصحيحة لا تنبت إلا في رياض القلوب التقية السليمة من البدع والانحرافات العقدية، ومن الأهواء والشهوات النفسية. تلك القلوب التي تنورت بالبصيرة.

والبصيرة نور يقذفه الله في قلب عبده المؤمن، فيرى من خلاله كثيرا من الحقائق، ويفهم أمورا يستعصي فهمها على غيره. فهذا الفهم خاص ومرتبط أساسا بالعلم الوهبي أو اللدني الصحيح، ومندرج في إطاره.

وزبدة الكلام في الموضوع أن العلم اللدني حقيقة؛ هو ذلك الفهم السليم والصحيح، وتلك الأفكار والخواطر والإشراقات السَّنية، الناتجة عن التقوى والاستقامة، والتي يهبها الله لمن يشاء من عباده المتقين العاملين. قال المفسر عبد الرحمن السعدي رحمه الله: في تفسير قوله تعالى: ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾ (الأنفال29): "وقد رتب الله على التقوى من خير الدنيا والآخرة شيئا كثيرا، فذكر هنا أن من اتقى الله

---

[38] - مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ابن القيم؛ محمد بن أبى بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت 751)، المحقق: محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي – بيروت ط3 1416 هـ - 1996م، ج 2، ص446.

جعل له أربعة أشياء كل واحد منها خير من الدنيا وما فيها: الأول: الفرقان وهو العلم والهدى الذي يفرق به صاحبه بين الهدى والضلال، والحق والباطل، والحلال والحرام، وأهل السعادة من أهل الشقاوة".[39] ففي هذا التفسير إشارة إلى العلم الوهبي اللدني. كما أن قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ (البقرة 281)، يومئ إلى العلم نفسه، وبذلك فسر الآية كثير من المفسرين. قال الإمام القرطبي رحمه الله: "وعد من الله تعالى بأن من اتقاه علمه، أي؛ يجعل في قلبه نورا يفهم به ما يلقى إليه، وقد يجعل الله في قلبه ابتداء فرقانا، أي؛ فيصلا يفصل به بين الحق والباطل، ومنه قوله تعالى: "يأيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا".[40]

إن الذين آمنوا واتقوا واستقاموا، يتولى الله أمرهم، ويلهمهم الرشد والصلاح، والفهم الصحيح لكل ما يتعلق بدينهم ودنياهم. وغيرهم يتولاهم الشيطان، بإذن النفس الأمارة بالسوء وإرادتها، فيوسوس لهم، ويعدهم ويمنيهم، ويملي عليهم، ويلهمهم أساليب وطرق الضلال التي يحسبونها لدنية رحمانية، بينما هي لدنية شيطانية. وكلما كان الخوف من الله متوقدا ومتوهجا في القلب، كان الظفر بالعلم اللدني سهلا وميسرا بإذن الله.

وللمتصوفة مذهب خاص فيما يتعلق بالعلم اللدني؛ وذلك أنهم

---

[39] - تيسير الكريم الرحمن فى تفسير كلام المنان، المرجع السابق، ص319.

[40] - الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله، محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، المرجع السابق، ج3، ص406.

حين أعرضوا عن العلم الشرعي، ولم يتقيدوا بضوابطه وطرق تحصيله المعهودة، خالفوا وصية إمام طريقهم؛ وهو أبو القاسم الجنيد رحمه الله، القائل: "طريقنا مبنية على الكتاب والسنة...."، فوقعوا فيما أسموه: " العلم اللدني"، الذي حسب رأيهم يقذفه الله في قلوب من يشاء من عباده الذين سلكوا درب التصوف، وأماتوا شهواتهم وأهواءهم بكثرة العبادة والرياضة النفسية، كما اجتهدوا في تخلية قلوبهم من الرذائل وتحليتها بالفضائل، كي تغدو محلا لورود الواردات، وتنزل العلوم والمعارف والنفحات. وقد لا أجانب الصواب إذا قلت بأن محي الدين بن عربي، كان أكثر المتصوفة اهتماما بهذا المجال، بل يعتبره أهل التصوف إماما في العلم اللدني. ومن جملة أقواله الدالة على ذلك قوله: "وما قصدت في كل ما ألفته مقصد المؤلفين ولا التأليف، وإنما كان يرد علي من الحق تعالى موارد تكاد تحرقني، فكنت أتشاغل عنها بتقييد ما يمكن منها، فخرجت مخرج التأليف لا من حيث القصد، ومنها ما ألفته عن أمر أمرني به الحق في نوم أو مكاشف".[41] ويقول عن كتابه "الفتوحات المكية": "بنيت كتابي هذا، بل بناه الله لا أنا، على إفادة الخلق، وكله فتح من الله تعالى"[42]. ويقول في الكتاب نفسه: "الحمد لله الذي جعلني من أهل الإلقاء والتلقي". ومن أشعاره في هذا المضمار، قوله:

قلمي ولوحي في الوجود يمده　　　قلم الإله ولوحه المحفوظ

[41] - "التدبيرات الإلهية في إصلاح المملكة الإنسانية"، محيي الدين بن عربي، بيروت 1981، ص 17.

[42] - الفتوحات المكية، محيي الدين بن عربي، ج4، ص 47.

ويدي يمين الله في ملكوته ما شئت أجري والرسوم حظوظ[43]

ولقد خوطب ابن عربي في نهاية معراجه بما يلي:

"أنت كيميائي، وأنت سيميائي، أنت إكسير القلوب، وحياض رياض الغيوب، بك تنقلب الأعيان أيها الإنسان، أنت الذي أردت، وأنت الذي اعتقدت: ربك فيك إليك ومبعودك بين عينيك، ومعارفك مردودة عليك ما عرفت سواك، ولا ناجيت إلا إياك".[44]

ومن أشعاره اللدنية التي يعبر فيها عن عقيدة وحدة الوجود، قوله:

فلولاه ولولانا لما كان الذي كانا
فإنا أعبد حقا وإن الله مولانا
و إنا عينه فاعلم إذا قلت إنسانا

....

فأعطيناه ما يبدو به فينا وأعطانا
فصار الأمر مقسوما بإياه و إيانا[45]

هذا غيض من فيض مما يتضمنه كلام ابن عربي الصوفي من انحرافات، وضلالات، ومسوخات، يسميها علوما لدنية وفتوحات ربانية. ونظراؤه من الصوفية في هذا الشأن كثيرون؛ كالسهروردي، وابن سبعين، والجيلي، والعفيف التلمساني، وغيرهم.

---

43 - التدبيرات الإلهية، المرجع السابق، ص 162.
44 - الإسرا إلى مقام الأسرى، أو كتاب المعراج، بيروت 1988، ص 168.
45 - المرجع السابق، ص 143.

وتولى العليم الحكيم تعليم نبيه عيسى عليه السلام حيث يخاطبه ممتنا عليه بقوله: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرِيٰةَ وَالِانجِيلَۖ ﴾ (المائدة 110).

وتولى ربنا عز وجل تعليم نبينا محمد ﷺ؛ ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُۖ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماًۖ ﴾ (النساء 113)، أي؛ أن الله سبحانه علم نبيه ما لم يكن يعلم من الأمور العظيمة، سواء فيما يتعلق بأخبار وقصص الأقوام والأمم السابقة، أو فيما يخص الحكمة، والدعوة إلى توحيد الله سبحانه، والأحكام الشرعية، إلى غير ذلك مما أوحاه إليه وما هو مسطر في كتابه المبين.

وقال عز وجل أيضا في سياق الامتنان على عبده المصطفى وذكر فضله العظيم: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحاً مِّنَ اَمْرِنَاۖ مَا كُنتَ تَدْرِے مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلِايمَٰنُ﴾ (الشورى 52). لقد نور الله قلبه وبصيرته بنور الوحي، حتى غدا أعظم رسول مرب ومعلم لأصحابه وللبشرية جمعاء. ولا يزال نور رسالته وتعليمه يسري في قلوب من يشاء من عباده إلى قيام الساعة.

ب- الله سبحانه يعلم عباده المؤمنين المتقين

ثم إن الله عز وجل تفضل على المؤمنين بتعليمهم ما ينفعهم في دنياهم وأخراهم شريطة أن يتقوه، حيث قال في كتابه العزيز: ﴿وَاتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۖ﴾ (البقرة 282)، أي أن العلم النافع يحصل بتقوى

الله. وكم من عالم لا ينفعه علمه لأنه لا يتقي الله وآثر الدنيا على الآخرة. فالله العليم الخبير يتولى تعليم المؤمنين المتقين علم ما يصلح لهم ويرشدهم في دنياهم كي يفوزوا بنعيم أخراهم. قال الحق سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ (الأنفال 29). "امتثال العبد لتقوى ربه عنوان السعادة، وعلامة الفلاح، وقد رتب الله على التقوى من خير الدنيا والآخرة شيئا كثيرا، فذكر هنا أن من اتقى الله حصل له أربعة أشياء، كل واحد منها خير من الدنيا وما فيها: الأول: الفرقان: وهو العلم والهدى الذي يفرق به صاحبه بين الهدى والضلال، والحق والباطل، والحلال والحرام، وأهل السعادة من أهل الشقاوة. الثاني والثالث: تكفير السيئات، ومغفرة الذنوب، وكل واحد منهما داخل في الآخر عند الإطلاق وعند الاجتماع يفسر تكفير السيئات بالذنوب الصغائر، ومغفرة الذنوب بتكفير الكبائر. الرابع: الأجر العظيم والثواب الجزيل لمن اتقاه وآثر رضاه على هوى نفسه؛ ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾.[46]

---

[46] - تفسير السعدي، المرجع السابق، ص 319.

الفصل الثاني:

التفكر في القرآن الكريم

التفكر لغة واصطلاحا

آيات التفكر في القرآن الكريم

أقوال السلف في التفكر

التفكر في القرآن الكريم

القرآن يدعو إلى التفكر ويحث عليه

التفكر عبادة وفرض عين

مجالات التفكر في القرآن الكريم

التفكر في الكون

التفكر في النفس

التفكر في نعم الله سبحانه

التفكر في قصص القرآن الكريم

التفكر في آيات القرآن الكريم وعظمته

ثمرات التفكر مستنبطة من القرآن الكريم

التفكر في القرآن الكريم

التفكر لغة واصطلاحا

التفكر لغة: قال العسكري في كتابه "الفروق اللغوية": "التفكر تصرف القلب بالنظر في الدلائل".[47]

التفكراصطلاحا: قال ابن القيم في تعريف الفكرة في كتابه "مدارج السالكين"؛ منزلة الفِكرة: "تحديق القلب إلى جهة المطلوب التماسًا له"[48].

آيات التفكر في القرآن الكريم

قال العليم الحكيم: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الأعراف 176).

وقال الملك الحق المبين: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (3 الرعد).

وقال السميع العليم: ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (النحل 11).

---

[47] - الفروق اللغوية؛ أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (395هـ)، حققه وعلق عليه: محمد إبراهيم سليم، الناشر: دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة – مصر. ص75.

[48] - مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ابن القيم؛ المرجع السابق، ج1، ص166.

وقال اللطيف الخبير: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (النحل 44).

وقال الرحمن الرحيم: ﴿ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (النحل 69).

وقال الله عز وجل: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (21 الروم).

وقال السميع البصير: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (42 الزمر).

وقال الغفور الرحيم: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (13 الجاثية).

وقال العزيز الحكيم: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (21 الحشر).

وقال الحليم والودود: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ (219 البقرة).

وقال الحي القيوم: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ (266 البقرة).

وقال علا م الغيوب: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (191 آل عمران).

وقال السميع البصير: ﴿قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ (50 الأنعام).

وقال الحق سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (184 الأعراف).

وقال العليم الخبير: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ (8 الروم).

وقال الملك القدوس: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ (46 سبإ).

أقوال السلف في التفكر

كتب عمر بن عبد العزيز إلى الحسن أن عظني وأوجز فكتب إليه

الحسن: أما بعد: "فإن رأس ما هو مصلحك ومصلح به على يديك: الزهد في الدنيا وإنما باليقين واليقين بالتفكر والتفكر بالاعتبار فإذا أنت فكرت في الدنيا لم تجدها أهلا أن تبيع بها نفسك ووجدت نفسك أهلا أن تكرمها بهوان الدنيا فإنما الدنيا دار بلاء ومنزل غفلة"[49].

وعن محمد بن واسع أن رجلاً من أهل البصرة ركب إلى أم ذر بعد موت أبي ذر، فسألها عن عبادة أبي ذر فقالت: "كان نهاره أجمع في ناحية البيت يتفكر"[50].

وقال ابن عباس: "ركعتان مقتصدتان في تفكر خيرٌ من قيام ليلة بلا قلب".[51]

وقال الحسن: "ما زال أهل العلم يعودون بالتفكر على التذكر، وبالتذكر على التفكر، ويناطقون القلوب حتى نطقت، فإذا لها أسماع وأبصار، فنطقت بالحكمة وضربت الأمثال، فأورثت العلم."[52].

التفكر في القرآن الكريم

تجسد مصطلح التفكر في موضوعات قرآنية جليلة، يسري في كيانها

---

[49] - الزهد لابن أبى الدنيا؛ أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس البغدادى الأموي القرشى المعروف بابن أبي الدنيا (ت 281هـ)، الناشر: دار ابن كثير، دمشق الطبعة الأولى 1420 هـ - 1999 م، ص150.

[50] - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، المرجع السابق، ج1، ص164.

[51] - الزهد والرقائق؛ عبد الله بن المبارك المروزي (ت181هج)، من رواية الحسين المروزي (وملحق بآخره زيادات من رواية نعيم بن حماد). حققه وعلق عليه: حبيب الرحمن الأعظمى. قام بنشره: محمد عفيف الزعبى، بإذن خطى من محققه حبيب الرحمن الأعظمي، ووكيل مجلس إحياء المعارف بـ (ماليكاون) ناسك (الهند)، د.ت.، ص403.

[52] - التبصرة لابن الجوزى، ابن الجوزى؛ جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت 597)، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط1، 1406هج- 1986م، ج1، ص65.

روح عبودية الإنسان ومدى استجابته وتفاعله مع الخطاب الإلهي الحكيم. ومن أبرز هذه الموضوعات ما يلي:

1- القرآن الكريم يدعو إلى التفكر ويحث عليه.
2- التفكر عبادة وفرض عين.
3- مجالات التفكر في القرآن الكريم، ومنها:
   1- التفكر في الكون.
   2- التفكر في النفس.
   3- التفكر في نعم الله عز وجل.
   4- التفكر في قصص القرآن.
   5- التفكر في آيات القرآن الكريم وعظمته
4- ثمرات التفكر مستنبطة من القرآن الكريم

1-القرآن الكريم يدعو إلى التفكرويحث عليه

لا علم بلا تفكر، لأن التفكر أداة العلم والمعرفة. والقرآن الكريم بدعوته وحثه على التفكر في النفس وما حملت واستوعبت، وفي الأرض وما حوت وأنبتت وفي النجوم والكواكب والمجرات، كيف دلت على الخالق العظيم المدبر الحكيم.

ولولا الوحي القرآني ما سعد المسلمون بالمدنية، والحضارة الإسلامية، التي انتشرت في أرجاء الأرض شرقا وغربا، وعم خيرها شعوبا وقبائل كانت من قبل تحيا حياة الأسر والعبودية، مقيدة بقيود الجهل والشرك والوثنية. ولولا فريضة التفكر وثناء الله على العلماء ورثة الانبياء،

ووعدهم بالعز في الدنيا والكرامة في الآخرة، ما وهبوا حياتهم لخدمة العلم، وتأسيس وبناء العلوم النقلية والعقلية، تلك العلوم التي أسهمت إسهاما عظيما في بناء الأمه الإسلامية، وإعداد أجيال من العلماء في شتى المجالات العلمية، وأجيال من الدعاة، والمصلحين، والمربين وغيرهم من الأعضاء النافعين، الذين شاركوا في تشييد وبناء صرح الحضارة الإسلامية العظيمة، التي لم ينقطع أثرها، ولا زالت الى يوم الناس، رغم ما أصابها من ضعف وتقهقر، تمد الثقافة العالمية الحديثة بألوان من عصارة علومها وأفكارها الخالدة. ولا زال الغربيون يستلهمون التراث الإسلامي، ويوظفون كثيرا من ثمراته وإبداعاته دون الإشارة إليه حقدا وتكبرا.

إن التفكر وإعمال العقل، أي: القلب في النفس، والأرض، والآفاق الكونية، أمر ملازم للمسلم الواعي الملتزم بمسؤولياته وواجباته، والمدرك لوظيفة الاستخلاف التي شرف الله بها آدم عليه السلام وذريته، ممن اهتدى بهديه وهدي الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ثم إن ألفاظ التفكر الواردة في الآيات المشار إليها في مطلع الموضوع، قد صيغت كلها في زمن المضارع؛ تنبيها من الوحي القرآني على أهمية التفكر والمداومة على ممارسته، والاستفادة من استعماله الدائم في مجال العلوم والمعارف، وفي كل ما يهم المسلم في حياته ووظيفته الاستخلافية.

كما أن القرآن الكريم قد استعمل في خطابه الداعي إلى التفكر: كلمات ذات صلة وثيقة به، مثل: النظر، والتدبر، والتعقل، والتفقه.

هذا وقد شمل التفكر القرآني كتابي الله عز وجل، المقروء والمنظور؛ المقروء في صفحات كتاب الله، والمنظور في صفحات الكون. ومن الآيات الدالة على كتاب الله المقروء؛ قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (النحل 44). ومن الآيات الناطقة بكتابه سبحانه المنظور؛ قوله عز وجل: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَالسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَالأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة 163).

فما أحوج المسلمين اليوم إلى استرجاع الصلة بالقرآن، والتمسك به، والعمل على تطبيقه في الحياة، والسلوك والمعاملات، مع دوام قراءته، وتدبر آياته، والإكثار من التفكر في معانيه وغاياته النبيلة والعظيمة.

هذا وإن التفكر في الاصطلاح القرآني غير التفكر بالمعنى الغربي المعاصر، المؤسس على الفلسفة اليونانية والغربية؛ اذ أن التفكر بالمعنى الأول: أفقي وعمودي في الآن نفسه؛ يربط الأرض بالكون والخلق بالخالق. إنه ينصب على الواقع والكون في تواصل مع الخالق، ويهدف الى ربط عالم الشهادة بعالم الغيب. في حين أن التفكر السائد اليوم على طريقة الغربيين؛ أفقي، مادي، ولا علاقة له بالتفكر القرآني الذي ينطلق من الربط بين المستويين الأفقي والعمودي. ولا يخفى على ذي لب مدى

الأزمات، والمشاكل، والويلات التي جنتها المدنية الغربية، لما أقصى وغيب علماؤها، وروادها، العنصر والمستوى العمودي من عملية التفكير، ومن مناهج البحث والدراسة العلمية.

2- التفكر عبادة وفرض عين

عَنْ عَطَاءٍ بن أبي رباح، قَالَ: دخَلْتُ أنا وعُبيدُ بنُ عُميرٍ على عائشةَ فقالت لِعُبيدِ بنِ عُميرٍ: قد آن لك أنْ تزورَنا فقال: أقولُ يا أمَّهْ كما قال الأوَّلُ: زُرْ غِبًّا تزدَدْ حُبًّا قال: فقالت: دعُونا مِن رَطانتِكم هذه قال ابنُ عُميرٍ: أخبِرينا بأعجَبِ شيءٍ رأَيْتِه مِن رسولِ اللهِ ﷺ قال: فسكَتَتْ ثمَّ قالت: لَمَّا كان ليلةٌ مِن اللَّيالي قال: (يا عائشةُ ذَرِيني أتعبَّدِ اللَّيلةَ لربِّي) قُلْتُ: واللهِ إنِّي لَأُحِبُّ قُرْبَك وأُحِبُّ ما سرَّك قالت: فقام فتطهَّر ثمَّ قام يُصَلِّي قالت: فلم يزَلْ يبكي حتَّى بَلَّ حجرَه قالت: ثمَّ بكى فلم يزَلْ يبكي حتَّى بَلَّ لِحيتَه قالت: ثمَّ بكى فلم يزَلْ يبكي حتَّى بَلَّ الأرضَ فجاء بلالٌ يُؤذِنُه بالصَّلاةِ فلمَّا رآه يبكي قال: يا رسولَ اللهِ لِمَ تَبكي وقد غفَر اللهُ لك ما تقدَّم وما تأخَّر؟ قال: (أفلا أكونُ عبدًا شكورًا لقد نزَلَتْ علَيَّ اللَّيلةَ آيةٌ، ويلٌ لِمَن قرَأها ولم يتفكَّرْ فيها ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَالأَرْضِ﴾ [53].

إن قول النبي ﷺ: "ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها" قول شديد ورهيب، ويتضمن من الوعيد ما لا تدركه إلا قلوب المتقين الخاشعين. كما ينطوي هذا القول على الأمر بالتفكر في آيات الله، والقيام بها امتثالا لأمر الله

[53] - صحيح ابن حبان: المسند الصحيح على التقاسيم والأنواع من غير وجود قطع في سندها ولا ثبوت جرح في ناقليها؛ أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد التميمي البُستي (ت 354)، المحقق: محمد علي سونمز، خالص آي دمير، دار ابن حزم – بيروت، ط1، 1433هج- 2012م، ج7، ص722.

سبحانه ورسوله صلوات الله وسلامه عليه.

ويستنبط من القول ذاته كون التفكر المطلوب شرعا؛ فرض عين لازم، لا عذر لمن تجاهله أو غفل عنه. بل كيف يغفل عنه المسلم وهو من صميم العبادة والعبودية ومقاصدهما؟

إن إطلاق نظر العين والقلب في مخلوقات الله سبحانه، مع التدبر واستحضار عظمة الخالق عز وجل، يجعل بصيرة المؤمن تنفتح على عوالم لا متناهية مما خلق الله سبحانه وأبدعه في هذا الكون العظيم، المشتمل على الكواكب والنجوم والمجرات الدالة على عظمة الصانع بديع السماوات والأرض. كما يضم في فضائه من الملائكة ما لا يعلم عددهم إلا الله العليم القدير.

هذا وإن الله سبحانه وتعالى أثنى على المتفكرين الربانيين، ومدحهم واصفا إياهم بأولي الألباب. كما بشرهم بالقرب منه، وبمنزلتهم العليا في الدنيا والآخرة. لقد استجابوا لربهم، وامتثلوا أوامره، واجتنبوا نواهيه، وقدموا النفس والنفيس طلبا لمرضاته، وللترقي في مدارج العلم من خلال التفكر، والتدبر في آياته سبحانه.

"يخبر تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، وفي ضمن ذلك حث العباد على التفكر فيها، والتبصر بآياتها، وتدبر خلقها، وأبهم قوله: "آيات" ولم يقل: "على المطلب الفلاني"؛ إشارة لكثرتها وعمومها، وذلك لأن فيها من الآيات العجيبة ما يبهر الناظرين، ويقنع المتفكرين، ويجذب أفئدة الصادقين، وينبه العقول

النيرة على جميع المطالب الإلهية، فأما تفصيل ما اشتملت عليه، فلا يمكن لمخلوق أن يحصره، ويحيط ببعضه، وفي الجملة فما فيها من العظمة والسعة، وانتظام السير والحركة، يدل على عظمة خالقها، وعظمة سلطانه وشمول قدرته. وما فيها من الإحكام والإتقان، وبديع الصنع، ولطائف الفعل، يدل على حكمة الله ووضعه الأشياء مواضعها، وسعة علمه. وما فيها من المنافع للخلق، يدل على سعة رحمة الله، وعموم فضله، وشمول بره، ووجوب شكره. وكل ذلك يدل على تعلق القلب بخالقها ومبدعها، وبذل الجهد في مرضاته، وأن لا يشرك به سواه، ممن لا يملك لنفسه ولا لغيره مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء. وخص الله بالآيات أولي الألباب، وهم أهل العقول؛ لأنهم هم المنتفعون بها، الناظرون إليها بعقولهم لا بأبصارهم."[54]

ولقد ذُكر "أولوا الألباب" في القرآن الكريم ست عشرة مرة، مما يدل على المنزلة السامية التي يحظى به أهل العلم والتفكر، عند الله سبحانه، وذلك لتمسكهم بالذكر والتفكر والتدبر، واستحضارهم لعظمة خالقهم من خلال التأمل في اياته المتجلية في الكون وفي النفوس. وحسب العلماء شرفا وفخرا أن أكرمهم بصفة الخشية، وذلك لدوام ذكرهم له، والتفكر في آياته، وقيامهم بوظيفة الرسالة التربوية، والدعوية والإصلاحية. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ (فاطر28). وكفى بالتفكر والتدبر في عظمة الخالق وخلقه، طريقا الى تنوير القلب بتقوى الله وخشيته. فما أسعد أهل التفكر والتدبر في آياته سبحانه، وما أطيب

[54] - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، المرجع السابق، ص159.

حياتهم في الدنيا والآخرة.

قال العلامة عبد الرحمن بن الجوزي رحمه الله: "واعلم أن التفكر ينقسم إلى قسمين: أحدهما يتعلق بالعبد، والثاني بالمعبود جل جلاله. فأما المتعلق بالعبد: فينبغي أن يتفكر: هل هو على معصية أم لا؟ فإن رأى زلة تداركها بالتوبة والاستغفار، ثم يتفكر في نقل الأعضاء، من المعاصي إلى الطاعات، فيجعل شغل العين العبرة، وشغل اللسان الذكر، وكذلك سائر الأعضاء.

ثم يتفكر في الطاعات ليقوم بواجبها ويجبر واهنها، ثم يتفكر في مبادرة الأوقات بالنوافل طلبا للأرباح، ويتفكر في قصر العمر فينتبه حذرا أن يقول غدا: يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله.

ثم يتفكر في خصال باطنه فيقمع الخصال المذمومة، كالكبر والعجب والبخل والحسد، ويتولى الخصال المحمودة، كالصدق والإخلاص والصبر والخوف. وفي الجملة يتفكر في زوال الدنيا فيرفضها، وفي بقاء الآخرة فيعمرها."[55].

3- مجالات التفكر في القرآن الكريم

منها:

1- التفكر في الكون

إن مما يدل على عظمة السماوات والأرض؛ ذكرهما في القرآن أكثر من ثلاثمائة مرة. وقد دعانا الله سبحانه إلى التفكر في مخلوقاته من

[55] - التبصرة لعبد الرحمن بن الجوزي، المرجع السابق، ص54.

كواكب، ونجوم، ومجرات، ليزداد إيمانـنا به سبحانه وتعظيمنا وتقديسنا له.

إن التفكر في الكون وما يحويه من مخلوقات، ومحاولة إدراك القوانين الكونية الثابتة، والنظر في الأفلاك التي تسبح فيها الكواكب والنجوم؛ ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (يس39)، وحركات الشمس والقمر، الى غير ذلك مما خلقه الله في السماوات والأرض؛ كل ذلك يشير إلى أن الله واحد لا شريك له، مدبر لما خلق، وممسك السماوات والأرض وما فيهن. وتنزه سبحانه أن يكون له شريك في ملكه وتدبير كونه سبحانه. قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا ءَالِهَةٌ اِلاَّ اُللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ (الأنبياء 22). وقال سبحانه: ﴿مَا اِتَّخَذَ اَللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنِ اِلَٰهٍ اِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ (المؤمنون 91).

وكلما ازداد المؤمنون إحاطة بعلوم الهندسة، والفلك، وعلوم الأرض والحياة، ازدادوا خشية وخضوعا لله عز وجل، لكونهم يطلعون، من خلال تلك العلوم، على حقائق علمية وفوائد جديدة. لذا فإن هذا التفكر يعتبره العلماء الربانيون عبادة عقلية، أي؛ صادرا من القلب المليء بالإيمان، والخضوع لله سبحانه. قال الله عز وجل: ﴿اُلذِے خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقاً مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ اِ۬لرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَارْجِعِ اِ۬لْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ (الملك 3). وقال سبحانه: ﴿وَالسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (47) وَالاَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ اَلْمَٰهِدُونَ (48) وَمِن كُلِّ شَےْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَّكَّرُونَ (49) ﴾ (الذاريات).

والحقيقة أن التأمل في السماوات والأرض، وما فيهما من مخلوقات، وعجائب، أمر يحير العقول، أي؛ القلوب. ومهما ملك الإنسان من الوسائل، والأدوات العلمية والتقنية، واستعملها في دراسة الكون والبحث في ميادينه، لن يظفر إلا بالنزر اليسير من المعلومات، والحقائق الكونية اللامتناهية. ويزداد الإنسان دهشة وانبهارا، حين يدرك أن الكواكب، والنجوم، وكل ما يسبح في السماوات، يتحرك وفق قوانين ثابته وخطة محكمة. كما أن هذه المخلوقات العظيمة السابحة في أفلاكها، جعلها الله سبحانه في خدمة الإنسان خليفته في الأرض. قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (النحل 12).

ثم إن الأرض بجبالها، وأنهارها، وبحارها، وترابها، وما تحويه من الكائنات والمخلوقات الحيوانية والنباتية، لآية من آيات الله العظمى؛ كل ذلك مسخر للانسان بقدرة الله وحكمته وتدبيره. قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الجاثية 13).

وهكذا فإن تفكر الإنسان في الكون يهديه إلى إدراك سنة التسخير القائمة على قوانين ثابتة، واستعمال أسباب هذه السنة فيما ينفعه حياته وبعد مماته. فمن ذلك اكتشاف الإنسان لقوة الهواء وأهميته، واستخدامه في تحقيق كثير من المصالح والمنافع، منها: تحريك الآلات، والطيران في السماء، وغير ذلك من المنافع.

كما أن تفكر الإنسان فيما تحويه البحار من الكنوز والمخلوقات، جعله يستفيد منها بواسطة العلم وإدراك سنة التسخير. وكذلك الشأن في كل ما خلق الله في السماء والأرض، وجعله في خدمة الإنسان.

ومن الآيات القرآنية العظيمة التي تدعونا إلى التفكر في مخلوقات الله سبحانه وتعالى، وتدلنا على عظمته ووحدانيته؛ قوله عز وجل: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (16) وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيّاً وَحِينَ تُظْهِرُونَ (17) يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَيُحْيِ ٱلأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ (18) وَمِنَ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ (19) وَمِنَ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنَ انفُسِكُمُۥٓ أَزْوَٰجاً لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً اِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (20) *وَمِنَ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمُۥٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّلْعَٰلَمِينَ (21) وَمِنَ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِاليْلِ وَالنَّهارِ وَابْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (22) وَمِنَ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (23) وَمِنَ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ(24)﴾ (الروم).

2- التفكر في النفس

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمّىً وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ

ٱلنَّاسِ بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾ (الروم 8).

إن كتاب الله العزيز حافل بالآيات التي تخاطب النفس، وتصفها وتذكر أنواعها الثلاثة، حيث أنها: أمارة ولوامة ومطمئنة. كما أن القرآن يتحدث عن علم الله بأسرار النفس، وخفاياها. يقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلإنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ (ق 16). ويتحدث القرآن عن ضعف النفس؛ قال تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلإنسَٰنُ ضَعِيفاً﴾ (النساء 28). كما يشير الى تجبرها وطغيانها؛ قال الحق سبحانه: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلإنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ (6) أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ(7) ﴾ (العلق). كما يشير أيضا الى تزكيتها وتدسيتها؛ قال سبحانه: ﴿قَدَ اَفْلَحَ مَن زَكَّيٰهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّيٰهَا(10) ﴾ (الشمس)، وإلى هداها وضلالها؛ قال تعالى: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِے لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ (الإسراء 15). وأشار كذلك إلى طاعتها وعصيانها؛ قال عز وجل: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحاً فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنَ اَسَآءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ (فصلت 46). إلى غير ذلك من الآيات البينات التي تذكر النفس، وتصف أحوالها وطبيعتها، وعلاقتها بربها وخالقها، ومدى استجابتها له أو إعراضها عنه سبحانه.

ثم إن تفكر المسلم في نفسه مسترشدا بالقرآن الحكيم، يجعله مدركا لكثير من الحقائق والأسرار العظيمة، منها؛ أنه عبد لله، وأن العبودية أمر فطري جُبِل عليه؛ قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَالإنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات 56). ومنها؛ أنه مرتحل إلى الآخرة، ومسافر إلى الله؛

قال سبحانه: ﴿إِنَّا لِلهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (البقرة 156). لذا يلزمه إعداد الزاد، والاستعداد للسفر والرحيل إلى دار المعاد. ومنها أن الله أكرمه بكرامة الاستخلاف في الأرض مصداقا لقوله سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي اِ۬لَارْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة 29). فهو مدعو للتفكر في أمر وظيفة الاستخلاف، وكيفيه القيام بواجباتها، وتحقيق أهدافها وغاياتها كما أمر الله ورسوله.

وتفكر الإنسان في نفسه وفيما أمره الله به، يفرض عليه الاهتمام بزوجته وأولاده. قال تعالى: ﴿وَمِنَ اٰيَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنَ اَنفُسِكُمُۥٓ أَزْوَٰجاً لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً اِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَاٰيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الروم 21). وإن نعمة الحياة الزوجية نعمة عظيمة، وهبها الله لعبده الذي يسكن الى زوجته مصدر السكينة والعاطفة والحنان. كما أن المودة، والرحمة، والألفة بينهما، تعينهما على تحمل مسؤولية الأسرة، والسهر على تربية الأبناء، وتنشئتهم تنشئة صالحة، كما تكون لهما عونا على مواجهة المشاكل الطارئة وايجاد الحلول المناسبه لها.

ثم إن تفكر العبد المسلم في نفسه كما أمر الله، يقوده إلى تربيتها وإصلاحها وتزكيتها، وحملها على التخلق بالأخلاق الحسنة، وتجنب الأخلاق السيئة المذمومة، والاجتهاد في الطاعات، ونوافل الخيرات، كي تنال من الله ما يثلج الصدر من النعم، والفلاح في الدنيا والآخرة. قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّيٰهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَيٰهَا (8) قَدَ اَفْلَحَ مَن زَكَّيٰهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّيٰهَا (10)﴾ (الشمس).

3- التفكر في نعم الله سبحانه

إن نعم الله على عباده كثيرة ومتنوعة لا تحصى، منها ما يتعلق بالمأكل، والمشرب، والملبس. ومنها ما يرتبط بالأمن والطمأنينة. ومنها ما هو أعظم، مثل؛ نعمة الهداية، والاسلام والتوحيد. وكذلك نعمة الفوز بالجنة، ونعمة النظر الى وجه الله الكريم. والقرآن يشير الى نعم الله وآلائه في كثير من الآيات، منها؛ قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لاَ تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (النحل 18). وقوله عز وجل: ﴿وَاشْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (النحل 114). وقوله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِے بِے ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنَ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ (لقمان 31). وقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِيناً﴾ (المائدة 3)، وغيرها من الآيات التي ورد فيها ذكر نعم الله على عباده.

قال المفسر عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "فإن نعمه الظاهرة والباطنة على العباد، بعدد الأنفاس واللحظات، من جميع أصناف النعم مما يعرف العباد، ومما لا يعرفون، وما يدفع عنهم من النقم فأكثر من أن تحصى إن الله لغفور رحيم يرضى منكم باليسير من الشكر مع إنعامه الكثير."[56]

ويستفاد من هذه النعم العظيمة فوائد كثيرة، منها:

أن نعم الله لا تعد ولا تحصى. فلو تأملنا نعمة النَّفَس، لوجدنا أن

[56] - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، المرجع السابق، ص500.

الإنسان يتنفس في اليوم والليلة ما يقارب أربعة وعشرين ألف نفَسٍ. وهذه الآلاف من الأنفاس كلها نعم.

ومنها أن النعم الظاهرة والباطنة الخفية لا نهاية لها ولا يعلمها إلا خالقها. بل معظم الناس لا يشعرون بكثير من النعم الباطنة، ولا ينتبهون لآثارها عليهم، لا سيما الغافلون منهم.

ومنها أن التفكر في نعم الله وإدراك آثارها الحميدة، يورث محبة المنعم الرزاق وتفتح باب الطاعة على مصراعيه.

ولعل أعظم نعمة أكرمنا الله بها؛ هي نعمه الإسلام والهداية. قال تعالى: قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ (7) فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ (الحجرات 8). والحمد لله على نعمة الاسلام وكفى بها نعمة. وقال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ (المائدة 3).

4- التفكر في قصص القرآن الكريم

قال الحق سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ (هود 100). جاء في "تفسير الوسيط": "أى: ذلك الذي قصصناه عليك- أيها الرسول الكريم- في هذه السورة الكريمة، وهو جزء مِنْ أَنْباءِ الْقُرى المهلكة. ونحن نقصه عليك، في هذا القرآن عن طريق

وحينا الصادق، ليعتبر به الناس، وليعلموا أن هذا القرآن المشتمل على هذا القصص الذي لا علم لهم به من عند الله.

وافتتح سبحانه، الكلام باسم الإشارة المفيد للبعد، للتنويه بشأن هذه الأنباء التي سبق الحديث عنها، وللإشعار بأنها أنباء هامة فيها الكثير من العظات والعبر لقوم يعقلون. والضمير في قوله: منها قائم وحصيد، يعود إلى تلك القرى المهلكة، والجملة مستأنفة للتحريض على النظر والاعتبار، فكأن سائلا سأل ما حال هذه القرى المهلكة أباقية آثارها أم عفى عليها الزمن؟ فكان الجواب: منها قائم وحصيد، أى: من هذه القرى المهلكة ما آثارها قائمة يراها الناظر إليها، كآثار قوم ثمود.

ومنها ما آثارها عفت وزالت، وانطمست وصارت كالزرع المحصود الذي استؤصل بقطعه، فلم تبق منه باقية، كديار قوم نوح". ففي هذه الجملة الكريمة تشبيه بليغ، حيث شبه- سبحانه- القرى التي بعض آثارها ما يزال باقيا بالزرع القائم على ساقه، وشبه ما زال منها واندثر بالزرع المحصود. وحصيد مبتدأ محذوف الخبر لدلالة ما قبله عليه، أى منها قائم ومنها حصيد".[57]

إن قصص القرآن الكريم تحدثنا عن أحوال الأمم الماضية ووقائعها وذكر البلدان والديار، وما حدث للأقوام السابقة لما كذبوا الرسل وتمردوا عليهم وعصوهم. كما أنها جمعت ذكر الأنبياء، والصالحين، والملائكة، والشياطين، وسير الملوك، والمماليك، والتجار، والعلماء،

---

[57] - التفسير الوسيط للقرآن الكريم؛ محمد سيد طنطاوي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة – القاهرة، الطبعة: الأولى، 1997 - 1998 م، ج7، ص270.

وكثير من الرجال، والنساء، وأحوالهم في دنياهم.

وتهدف القَصة القرآنيّة إلى تحقيق مقاصد وغايات عملية شريفة؛ منها: إحياء وتقوية مشاعر الإيمان في القلب، لما يحدثه التأمل في أحوال الأمم السابقة والاعتبار بما حصل لهم نتيجة رفضهم لرسالة الأنبياء والرسل، فيغدو قلب المؤمن المعتبر معلقا بين الخوف والرجاء. لتحقيق عدّة أمورٍ، فيما يأتي بيانٌ لبعضٍ منها: تحريك المشاعر والعواطف في القلوب، وإثارة الوجدان فيها، فتُصبح القلوب معلّقةً بين الخوف والرّجاء. إنها ثمرة أَخْذ الموعظة والعِبرة من القَصص القرآنيّ؛ حيث أن القارئ لتلك القَصص، والمتدبر في أحوال الأُمم، ومصيرهم، وما آلوا إليه، يعتبر بتلك المشاهد الرهيبة، فيسأل الله النجاة وحسن الخاتمة.

وقال الحي القيوم: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (يوسف 111). لقد أجاد المفسر العلامة عبد الرحمن السعدي رحمه الله وأفاد بذكر العبر والفوائد المستخلصة من قصة نبي الله يوسف عليه السلام. وسأنقل بعضها راجيا من الله أن ينور بها موضوع التفكر في القرآن. قال رحمه الله:

"فصل في ذكر شيء من العبر والفوائد التي اشتملت عليها هذه القصة العظيمة التي قال الله في أولها ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ وقال ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ﴾ وقال في

آخرها ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ غير ما تقدم في مطاويها من الفوائد.

فمن ذلك، أن هذه القصة من أحسن القصص وأوضحها وأبينها، لما فيها من أنواع التنقلات، من حال إلى حال، ومن محنة إلى محنة، ومن محنة إلى منحة ومنَّة، ومن ذل إلى عز، ومن رقٍّ إلى ملك، ومن فرقة وشتات إلى اجتماع وائتلاف، ومن حزن إلى سرور، ومن رخاء إلى جدب، ومن جدب إلى رخاء، ومن ضيق إلى سعة، ومن إنكار إلى إقرار، فتبارك من قصها فأحسنها، ووضحها وبيَّنها.

ومنها: أن فيها أصلا لتعبير الرؤيا، وأن علم التعبير من العلوم المهمة التي يعطيها الله من يشاء من عباده، وإن أغلب ما تبنى عليه المناسبة والمشابهة في الاسم والصفة، فإن رؤيا يوسف التي رأى أن الشمس والقمر، وأحد عشر كوكبا له ساجدين، وجه المناسبة فيها: أن هذه الأنوار هي زينة السماء وجمالها، وبها منافعها، فكذلك الأنبياء والعلماء، زينة للأرض وجمال، وبهم يهتدى في الظلمات كما يهتدى بهذه الأنوار، ولأن الأصل أبوه وأمه، وإخوته هم الفرع، فمن المناسب أن يكون الأصل أعظم نورا وجرما، لما هو فرع عنه. فلذلك كانت الشمس أمه، والقمر أباه، والكواكب إخوته.

ومنها: أن الهمَّ الذي همَّ به يوسف بالمرأة ثم تركه لله، مما يقربه إلى الله زلفى، لأن الهمّ داع من دواعي النفس الأمارة بالسوء، وهو طبيعة لأغلب الخلق، فلما قابل بينه وبين محبة الله وخشيته، غلبت محبة الله وخشيته داعي النفس والهوى. فكان ممن ﴿خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى

ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴾، ومن السبعة الذين يظلهم الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله، أحدهم: "رجل دعته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله"، وإنما الهم الذي يلام عليه العبد، الهم الذي يساكنه، ويصير عزما، ربما اقترن به الفعل.

ومنها: أن من دخل الإيمان قلبه، وكان مخلصا لله في جميع أموره فإن الله يدفع عنه ببرهان إيمانه، وصدق إخلاصه من أنواع السوء والفحشاء وأسباب المعاصي ما هو جزاء لإيمانه وإخلاصه لقوله: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾، على قراءة من قرأها بكسر اللام، ومن قرأها بالفتح، فإنه من إخلاص الله إياه، وهو متضمن لإخلاصه هو بنفسه، فلما أخلص عمله لله أخلصه الله، وخلصه من السوء والفحشاء.

ومنها: أنه ينبغي للعبد إذا رأى محلا فيه فتنة وأسباب معصية، أن يفر منه ويهرب غاية ما يمكنه، ليتمكن من التخلص من المعصية، لأن يوسف عليه السلام، لما راودته التي هو في بيتها، فر هاربا، يطلب الباب ليتخلص من شرها.

ومنها: أن يوسف عليه السلام اختار السجن على المعصية، فهكذا ينبغي للعبد إذا ابتلي بين أمرين؛ إما فعل معصية، وإما عقوبة دنيوية، أن يختار العقوبة الدنيوية على مواقعة الذنب الموجب للعقوبة الشديدة في الدنيا والآخرة، ولهذا من علامات الإيمان، أن يكره العبد أن يعود في الكفر، بعد أن أنقذه الله منه، كما يكره أن يلقى في النار.

ومنها: أنه ينبغي للعبد أن يلتجئ إلى الله، ويحتمي بحماه عند وجود أسباب المعصية، ويتبرأ من حوله وقوته، لقول يوسف عليه السلام: ﴿وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ "وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ"."[58].

إن القصة في القرآن الكريم تشتمل على فوائد عظيمة تدعو إلى التفكر والتدبر واستخلاص العبر. ومن هذه الفوائد؛ بيان مقاصد الدعوة إلى الله سبحانه؛ قال عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ يُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء 25). ومنها تثبيت قلب نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه، وقلوب أمته على الإيمان والدين. قال الحق سبحانه: ﴿وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ (هود 12). ومنها حصول العبر مصداقا لقوله عز وجل: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ (يوسف111).

ثم إن التفكر في قصص القرآن الكريم يهدي إلى استنباط المعاني والعبر من سنن الله في عباده، وكيف أن جريان هذه السنن في حياة الأقوام والأمم، يؤثر في أحوالهم ومصائرهم، فيعتبر المؤمن ويتعظ، ويعلم أن سنن الله ثابتة ومطردة، وأن العباد يتفاعلون معها، سلبا وإيجابا، إلى يوم القيامة.

ومن المقاصد العظيمة المتضمنة في القصة القرآنية؛ مقصد وحدانية الله؛ من ذلك إثبات التوحيد على لسان يعقوب عليه السلام وبنيه في

---

[58] - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، المرجع السابق، ص462.

قوله تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِي ۖ قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ۖ﴾ (البقرة 133). وكذلك على لسان نوح عليه السلام؛ قال الحق سبحانه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ (الأعراف 85). وعلى لسان هود عليه السلام؛ قال العليم الحكيم: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ﴾ (الأعراف 65). وكذلك في قصة موسى عليه السلام؛ قال عز وجل: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ۖ﴾ (طه 14).

إن تفكر المسلم وتدبره في القصص القرآنية يقوي إيمانه بالله عز وجل، ويرسخ عقيدة التوحيد في قلبه. كما يعلمه الصبر على تحمل الأذى، أسوة بالأنبياء والرسل. قال الحق سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ﴾ (الأنعام 34).

ثم إن المسلم يدرك من خلال التفكر في القصص القرآنية، أن الطغاة والجبابرة، مهما طغوا وتجبروا، فإن مصيرهم الهلاك في الدنيا والعذاب في الآخرة، وأن العاقبة تكون للمؤمنين الصابرين، أمثال طالوت عليه السلام وجنوده، إذ قالوا: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ (البقرة 248).

هذا وإن تكرار القصة نفسها في مواضع قرآنية كثيرة، يعتبر أسلوبا

قرآنيا فريدا، يهدف إلى ترسيخ الفكرة في القلوب كي تتجدد العظة والعبرة من وقائع وأحداث القصة القرآنية.

ثم إن الناظر المتأمل في قصص القرآن ليدرك أنها كنزٌ لا ينفد، ومَعين لا ينضب، بما تشتمل عليه من عبر ودروس وفوائد، ومن توجيهات تربوية وأخلاقية واجتماعية. كما أنها تنبه الناس على سنن الله عز وجل في نشوء المجتمعات وسيرها، وتأثيرها، بإذن ربها، في حياة الناس سلبا وإيجابا، ومطالعة أمر الله في أحوالهم. كما أن دوام التفكر في القصص والأمثال القرآنية من أعمال القلوب التي توصل إلى مرضاة الله، وتعمل على انشراح الصدر، وجلب السكينة والطمأنينة، كما تورث الخوف والخشية من الله، وتثمر العلم والحكمة والبصيرة.

5- التفكر في آيات القرآن الكريم وعظمته

إن قراءة القرآن الكريم نوعان: قراءة باللسان وحده، وقراءة باللسان مع استحضار القلب. فالأولى قراءة الغافلين والثانية قراءة المتقين. ولا يحظى ويظفر بالثانية إلا من أخلص قلبه لله، واجتهد في مجاهدة النفس، ومحاسبتها، ومراقبتها، وفضل حرث الآخرة على حرث الدنيا. ثم إن القراءة الأولى تندرج تحت عبادة الجوارح، والقراءة الثانية تندرج تحت عبادة القلب.

إن إعمال القلب في القرآن أثناء قراءته، من خلال التفكر والتدبر، يفضي بالقارئ الى الاتعاظ والتذكر، واستخلاص العبر، والحكم النفيسة. بينما قراءة الغافلين تنحصر في النظر الى الحروف بواسطة

عيني الرأس، وعين القلب نائمة أو معطلة، بل تسيح في فضاء الخواطر والأفكار المتعلقة بالنفس وأهوائها، أو في أودية الخيالات والأوهام. قال عز وجل: ﴿لَوَ اَنزَلْنَا هَٰذَا اَ۬لْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعاٗ مُّتَصَدِّعاٗ مِّنْ خَشْيَةِ اِ۬للَّهِۖ وَتِلْكَ اَ۬لَامْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَۖ﴾ (الحشر 21).

"ولما بين تعالى لعباده ما بين، وأمرهم ونهاهم في كتابه العزيز، كان هذا موجبا لأن يبادروا إلى ما دعاهم إليه وحثهم عليه، ولو كانوا في القسوة وصلابة القلوب كالجبال الرواسي، فإن هذا القرآن لو أنزله على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله أي: لكمال تأثيره في القلوب، فإن مواعظ القرآن أعظم المواعظ على الإطلاق، وأوامره ونواهيه محتوية على الحكم والمصالح المقرونة بها، وهي من أسهل شيء على النفوس، وأيسرها على الأبدان، خالية من التكلف لا تناقض فيها ولا اختلاف، ولا صعوبة فيها ولا اعتساف، تصلح لكل زمان ومكان، وتليق لكل أحد.

ثم أخبر تعالى أنه يضرب للناس الأمثال، ويوضح لعباده في كتابه الحلال والحرام، لأجل أن يتفكروا في آياته ويتدبروها، فإن التفكر فيها يفتح للعبد خزائن العلم، ويبين له طرق الخير والشر، ويحثه على مكارم الأخلاق، ومحاسن الشيم، ويزجره عن مساوئ الأخلاق، فلا أنفع للعبد من التفكر في القرآن والتدبر لمعانيه."[59]

وللعلامة الفقيه محمد بن القيم كلام نفيس في هذا الموضوع. قال

[59]-. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، المرجع السابق، ص1014.

رحمه الله تعالى: "فليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده، وأقرب إلى نجاته من تدبر القرآن، وإطالة التأمل، وجمع الفكر على معاني آياته؛ فإنها تطلع العبد على معالم الخير والشر بحذافيرهما، وعلى طرقاتهما وأسبابهما وغاياتهما وثمراتهما، ومآل أهلهما، وتَتُلُّ -أي تضع- في يده مفاتيح كنوز السعادة والعلوم النافعة، وتثبت قواعد الإيمان في قلبه، وتشيد بنيانه، وتوطد أركانه، وتريه صورة الدنيا والآخرة، والجنة والنار في قلبه، وتحضره بين الأمم، وتريه أيام الله فيهم، وتبصره مواقع العبر، وتشهده عدل الله وفضله، وتعرفه ذاته، وأسماءه وصفاته وأفعاله، وما يحبه وما يبغضه، وصراطه الموصل إليه، وما لسالكيه بعد الوصول والقدوم عليه، وقواطع الطريق وآفاتها، وتعرفه النفس وصفاتها، ومفسدات الأعمال ومصححاتها، وتعرفه طريق أهل الجنة وأهل النار وأعمالهم، وأحوالهم وسيماهم"[60].

والقرآن الكريم يخاطب أولي الألباب، والقلوب المؤمنة الزكية، ويحثهم على السير في مناكب الأرض والتفكر فيما على ظهرها من المخلوقات الكثيرة والمختلفة؛ تارة بالأمر، وتارة أخرى بالتنبيه على فضله ونعمه، وثالثه بتوعد من عميت بصيرتهم، وغشيتهم الغفلة، فأمسوا لا يتفكرون في آيات الله سبحانه. إن المسلم عندما ينظر الى آيات الله في الأرض والسماء، ويتبصرها ويتدبرها بصدق واستحضار قلبه؛ يتذكر، فيتفكر، ثم يعتبر، فيتوجه بقلبه وكل جوارحه إلى الله مجتهدا في طاعته وامتثال أوامره.

---

[60] - مدارج السالكين، المرجع السابق، ج1، ص451.

وإذا لم يُفضِ التعقل بالمسلم إلى التفكر، والتفكر إلى التدبر، والتدبر إلى التذكر، والتذكر إلى الاعتبار؛ فما ثَمَّ إلا ضربٌ في حديد بارد. والتعقل هو ربط المعلومات المكتسبة عن طريق الحواس. والتفكر عملية تعقلية وجدانية محلها القلب أي الروح. والتدبر معناه نظر القلب في عواقب الأشياء والأمور، مع استصحاب النظرة الأفقية المتقاطعة مع النظرة العمودية، أي؛ ربط الأرض بالسماء والخلق بالخالق سبحانه.

والتذكر في معناه الأولي الأفقي؛ عملية استرجاع للمعلومات الماضية. وفي معناه القرآني؛ استحضار القلب لمقصود الخالق عز وجل من وجود الإنسان، والغاية من خلقه واستخلافه في الأرض. ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ (البقرة 269).

والاعتبار بالمعنى القرآني؛ نظر القلب وتفكره وتأمله في جلال الله وعظمته، وعظيم مخلوقاته، وآياته الكونية، وتصرف قدرته ومشيئته وسُننه في حياة الإنسان، وذلك من أجل استخلاص العِبر وإيقاظ القلب، كي يخشى ويتعظ بما استنتج وعلِم وفهِم." ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ (الحشر 2).

والخلاصة أن التفكر فريضة وعبادة من عبادات الدين، وأصل من أصوله. وهي عبادة جليلة الشأن، عظيمة النفع، حث الله عليها عباده المؤمنين. كما أن التفكر أداة أساسية لفهم الدين والتفقه في أوامره ونواهيه، وأنه مفتاح معرفة الله سبحانه وتعظيمه ومحبته، ومفتاح معرفه النفس وحملها على التزكية وطاعة ربها سبحانه. وبفضل التفكر

في آيات الله عز وجل وسننه في الكون والحياة الاجتماعية، والقيام بوظيفة الاستخلاف، استطاع المسلمون بناء أعظم حضارة عرفتها البشرية. ولا مستقبل للمسلمين الا بالرجوع الى كتاب الله العزيز وتدبره، والتفكر في آياته، والاهتداء بهديه، والعمل بمقتضاه.

ثمرات التفكر مستنبطة من القرآن الكريم

إن للتفكر في كتاب الله عز وجل ثمرات لا حصر لها، منها:

- تقوية الإيمان وترسيخه في القلب، وتجديده على الدوام، فيبادر العبد المؤمن، وقد قوي إيمانه، إلى القيام بمهام وظيفة الاستخلاف في الأرض أحسن قيام. وينطلق في سعيه متفاعلا تفاعلا إيجابيا، مع أعضاء مجتمعه، مستغلا ما سخر الله له مما ينتفع به على وجه الأرض، شاكرا ربه سبحانه على تسخير منافعها وخيراتها، وتيسيرها له.
- ومن ثمرات التفكر في كتاب الله عز وجل وآياته؛ حصول المؤمن على مواهب، وحكم، ومعارف ربانية، تكون سببا في ترقية روحه في مدارج الإيمان، ورافدا من روافد العلم والإصلاح، وتزكية النفس. فلا يسعه بعد ذلك إلا المزيد من الحمد، والشكر، والثناء على الله سبحانه وذكره.
- ومن ثمرات التفكر في كتاب الله عز وجل وآياته؛ ما يحدث في قلب المؤمن المتدبر من الخشية والخوف من الله سبحانه. قال العليم الحكيم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ (58) ... أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ(62) ﴾.
- ومن ثمرات التفكر في كتاب الله وآياته عز وجل؛ حصول انكسار

ورقة في قلب العبد المؤمن، مما يرغبه في التوبة والإنابة، فيزداد إقبالا على كتاب الله سبحانه، ويتدبر آياته بصدق وخشوع، فتتبدد ظلمات الشهوات النفسية، وتندحر جيوش النفس الأمارة بالسوء. ثم تضمحل وتتبدد دواعي الكبر والرياء، والعجب والغرور، ويتحلى القلب بالصفات الحميدة كالصدق، والإخلاص، والتواضع. ويصفو الجو للمناجات، وينفسح المجال للتضرع والابتهالات، والتقرب إلى المعبود بأعمال البر والطاعات.

- ومن ثمرات التفكر في آيات الذكر الحكيم؛ انجذاب قلوب المؤمنين المتقين إلى عالم الآخرة؛ حيث تغدو صور ومشاهد الآخرة حاضرة على الدوام في قلوبهم، فيستحضرون أحوال القيامة وأهوالها، ووعد الاخرة ووعيدها، فيحملهم الرجاء إلى حيث تطمئن قلوبهم، وتنشرح صدورهم وهم يقرؤون قوله تعالى: ﴿فَـَٔاتَيٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْاَخِرَةِۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَۖ﴾ (آل عمران 148). وقوله عز وجل: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرىٰ فِے ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيا وَفِے ٱلْاَخِرَةِۖ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُۖ﴾ (يونس 64). إلى غيرها من الآيات القرآنية المبشرة بوعد الله سبحانه، وكرمه، وجوده، وإحسانه. وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟

الفصل الثالث:

الحكمة في القرآن الكريم

الحكمة لغة واصطلاحا

آيات الحكمة في القرآن الكريم

الحكمة في السنة النبوية

أقوال السلف في الحكمة

الحكيم إسم من أسماء الله سبحانه

الحكمة في القرآن الكريم

الحكمة بمعنى السنة

الحكمة بمعنى العلم والفهم الصائب والفقه في الدين

الدعوة إلى الله عز وجل بالحكمة

لا تطابق ولا تماثل بين الحكمة الإسلامية والفلسفة.

الحكمة في القرآن الكريم

الحكمة لغة واصطلاحا

"الحكمة عبارة عن معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم، ويقال لمن يحسن دقائق الصناعات ويتقنها: حكيم ".[61]

قال العلامة محمد ابن القيِّم رحمه الله: "الحِكْمَة: فعل ما ينبغي، على الوجه الذي ينبغي، في الوقت الذي ينبغي"[62]، وقال النَّووي: "الحِكْمَة، عبارة عن العلم المتَّصف بالأحكام، المشتمل على المعرفة بالله تبارك وتعالى، المصحوب بنفاذ البصيرة، وتهذيب النَّفس، وتحقيق الحقِّ، والعمل به، والصدِّ عن اتِّباع الهوى والباطل، والحَكِيم من له ذلك"[63].

آيات الحكمة في القرآن الكريم:

قال الحق سبحانه: ﴿يُوتِي اِ۬لْحِكْمَةَ مَنْ يَّشَآءُۖ وَمَنْ يُّوتَ اَ۬لْحِكْمَةَ فَقَدُ اُوتِيَ خَيْراً كَثِيراًۖ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ اُ۬لَالْبَٰبِۖ﴾ (البقرة 269).

وقال العزيز الحكيم: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحيٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ اَ۬لْحِكْمَةِۖ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اَ۬للَّهِ إِلَٰهاً ـاخَرَ فَتُلْقيٰ فِے جَهَنَّمَ مَلُوماً مَّدْحُوراًۖ﴾ (الإسراء 39).

وقال السميع العليم: ﴿وَلَقَدَ ـاتَيْنَا لُقْمَٰنَ اَ۬لْحِكْمَةَ أَنُ اُشْكُرْ لِلهِۖ وَمَنْ يَّشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اَ۬للَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌۖ﴾ (لقمان 12).

---

61 - لسان العرب، ابن منظور، المرجع السابق، ج12، ص140.

62 - مدارج السالكين، المرجع السابق، ج2، ص449.

63 - المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج؛ أبو زكريا محيى الدين يحيى بن شرف النووي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثانية، 1392. ج2، ص33.

وقال الحي القيوم: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ۝﴾ (ص 20).

وقال السميع البصير: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝﴾ (البقرة 129).

وقال البر الرحيم: ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة 151).

وقال العليم الخبير: ﴿وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَاتَّقُواْ ٱللَّهَ وَاعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝﴾ (البقرة 231).

وقال اللطيف الخبير: ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَيٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ وَلَوْلَا دِفَٰعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝﴾ (البقرة 251).

وقال الرحمن الرحيم: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَيٰةَ وَالِانجِيلَ﴾ (آل عمران 48).

وقال الغفور الشكور: ﴿وَإِذَ اَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـِۧنَ لَمَآ ءَاتَيْنَٰكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُومِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ ۞قَالَ ءَآقْرَرْتُمْ وَأَخَذتُّمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمُ إِصْرِےۖ قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَاۚ قَالَ فَاشْهَدُواْ وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝﴾ (آل عمران 81).

وقال الملك القدوس: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُومِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنَ اَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِے ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ (آل عمران 164).

وقال علام الغيوب: ﴿اَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتِيٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ فَقَدَ ـاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَالْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكاً عَظِيماً﴾ (النساء 54).

وقال البر الرحيم: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمُۥٓ أَنْ يُّضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَےْءٍ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً﴾ (النساء 113).

وقال السميع العليم: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرِيٰةَ وَالِانجِيلَ﴾ (المائدة 110).

وقال الله عز وجل: ﴿اَدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ اِلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِالتِے هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (النحل 125).

وقال البارئ المصور: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِے بُيُوتِكُنَّ مِنَ ـايَٰتِ اِللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً﴾ (الأحزاب 34).

وقال الأول والآخر: ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلذِے تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ (الزخرف 63).

وقال المحيي والمميت: ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ (القمر 5).

وقال المبدئ والمعيد: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ (الجمعة 2).

الحكمة في السنة النبوية

عن عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: "لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضي بها ويعلمها"[64].

وعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: "أَتاكُمْ أهْلُ اليَمَنِ، هُمْ أرَقُّ أفْئِدَةً وأَلْيَنُ قُلُوبًا، الإيمانُ يَمانٍ والحِكْمَةُ يَمانِيَةٌ، والفَخْرُ والخُيَلاءُ في أصْحابِ الإبِلِ، والسَّكِينَةُ والوَقارُ في أهْلِ الغَنَمِ."[65]

أقوال السلف في الحكمة

وقال عمر بن عبد العزيز: إذا رأيتم الرَّجل يطيل الصَّمت، ويهرب من النَّاس، فاقْرَبوا منه؛ فإنَّه يُلقَّى الحِكْمَة".[66]

وجاء في كتاب فتح الباري في شرح البخاري لابن حجر: "وَاخْتَلَفَ الشُّرَّاح فِي الْمُرَاد بِالْحِكْمَةِ هُنَا فَقِيلَ: الْقُرْآن كَمَا تَقَدَّمَ، وَقِيلَ: الْعَمَل بِهِ، وَقِيلَ: السُّنَّة، وَقِيلَ: الإِصَابَة فِي الْقَوْل، وَقِيلَ: الْخَشْيَة، وَقِيلَ: الْفَهْم عَنْ اللَّه،

---

64 - متفق عليه.

65 - صحيح البخاري، المرجع السابق، ج5، ص173.

66 - التبصرة لابن الجوزي، المرجع السابق، ج2، ص289.

وَقِيلَ: الْعَقْل، وَقِيلَ: مَا يَشْهَد الْعَقْل بِصِحَّتِهِ، وَقِيلَ: نُور يُفَرِّق بِهِ بَيْن الإِلْهَام وَالْوَسْوَاس، وَقِيلَ: سُرْعَة الْجَوَاب مَعَ الإِصَابَة. وَبَعْض هَذِهِ الأَقْوَال ذَكَرَهَا بَعْض أَهْل التَّفْسِير فِي تَفْسِير قَوْله تَعَالَى ﴿لَقَدۡ ءَاتَيۡنَا لُقۡمَٰنَ ٱلۡحِكۡمَةَ﴾. وَالأَقْرَب أَنَّ الْمُرَاد بِهَا فِي حَدِيث اِبْن عَبَّاس: الْفَهْم فِي الْقُرْآن".[67]

الحكيم اسم من أسماء الله سحانه والحكمة صفة من صفاته

يدل اسم الله الحكيم على أنه سبحانه يضع الأمور في مواضعها، ويرتب الأشياء أكمل ترتيب، وينزلها منازلها المناسبة والمحكمة. ويتصرف عز جل في خلقه وكونه تصرف العالم الحكيم الخبير. كما ينطق أمره ونهيه لعباده بالحكمة البالغة؛ إذ هو منزه عن العبث وعما لا يليق به من الصفات. قال الحق سبحانه: ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ﴾ (المؤمنون 115). استفهام إنكاري من الله عز وجل للمشركين الذين لا يؤمنون بيوم الحساب، ويظنون أن خلقهم كان عبثا، وأنهم لن يبعثوا ولن يحاسبوا بعد موتهم.

وتتجلى حكمته العظيمة في تدبير شؤون مخلوقاته، كما تتجلى في تشريعه الحكيم لعباده. وقد ورد إسم الله الحكيم مقرونا مقرونا باسمه العزيز عشرات المرات؛ مثل قوله عز وجل: ﴿إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ (المائدة 118)، وقوله تعالى:

---

[67] - فتح الباري بشرح البخاري؛ أحمد بن على بن حجر العسقلانى، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقى، قام بإخراجه وتصحيح تجاربه: محب الدين الخطيب. الناشر: المكتبة السلفية - مصرالطبعة:السلفية الأولى 1380- 1390هج. ج1، ص170.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً﴾ (النساء 56)، أي؛ قاهر قوي، لا يغلب ولا يحول مانع بينه وبين عقابه للظالمين، كما أنه حكيم في محاسبته ومجازاته لهم بأنكى أنواع العذاب.

وجاء ذكر إسمه سبحانه الحكيم مقرونا بإسمه العليم في أكثر من ثلاثين آية؛ منها قوله تعالى: ﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لاَ عِلْمَ لَنَآ إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ (البقرة 32)، أي؛ الذي أحاط علمه بكل ما خلق، فلا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض؛ ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَالشَّهَٰدَةِ﴾، الحكيم في تصرفه في ملكه، الفاعل لما يشاء بحكمة بالغة.

وقال الحق سبحانه: ﴿وَلاَ تَهِنُواْ فِي اِبْتِغَآءِ اِلْقَوْمِ إِن تَكُونُواْ تَالَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَالَمُونَ كَمَا تَالَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لاَ يَرْجُونَ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾ (النساء 104)، أي: أنتم وإياهم سواء فيما يصيبكم من البلاء والآلام، غير أنكم بإيمانكم، ترجون من الله الثواب والنصر والجنة، بينما أعداؤكم لا يرجون ذلك. فأنتم أولى وأجدر بالصبر والجهاد.

واقترن إسمه الحكيم بإسمه الخبير سبحانه في أربعة مواضع؛ مثل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ (الأنعام 18)، كما اقترن بإسمه التواب في موضع واحد؛ قال تعالى: ﴿وَلَوْلاَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ (النور 10)، واقترن أيضا بإسمه الواسع في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اِللَّهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِۦ

وَكَانَ ٱللَّهُ وَاسِعاً حَكِيماً ﴾ (النساء 130)، أي: أن الزوجين المتخاصمين إذا افترقا بعد أن لم ينفع الصلح بينهما، فإن الله سبحانه يتولى أمرهما بتيسير الرزق والخير لهما، لأنه رحيم وفضله واسع وحكمته عظيمة بليغة.

الحكمة في القرآن الكريم

ورد لفظ الحكمة في القرآن الكريم عشرين مرة في معان مختلفة، منها:

1- الحكمة بمعنى السنة

قال الإمام الطبري رحمه الله: "القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَالْحِكْمَةِ﴾: قال أبو جعفر: يعني تعالى ذكره بذلك: واذكروا نعمة الله عليكم بالإسلام، الذي أنعم عليكم به فهداكم له، وسائر نعمه التي خصكم بها دون غيركم من سائر خلقه، فاشكروه على ذلك بطاعته فيما أمركم به ونهاكم عنه، واذكروا أيضا مع ذلك ما أنزل عليكم من كتابه، وذلك: القرآن الذي أنزله على نبيه محمد صلي الله عليه وسلم، واذكروا ذلك فاعملوا به، واحفظوا حدوده فيه. و"الحكمة"، يعني: وما أنزل عليكم من الحكمة، وهي السنن التي علمكموها رسول الله ﷺ وسنها لكم".[68]

ولعل لفظ "أنزل" في الآية ينطق بكون الحكمة تفيد السنة التي هي نفسها وحي منزل من عند الله عز وجل، مصداق ذلك قول رسول الله ﷺ:

---

[68] - جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري؛ المرجع السابق، ج4 ص186.

" ألا إني أُوتيتُ القرآنَ ومثلُه معه". [69]

دل الحديث على أنَّه لا يجوز الإعراض عن حديثه عليه الصلاة والسلام؛ إذ المعرض عنه معرض عن القرآن أصلًا؛ لأنَّ الله يقول: ﴿وَمَآ ءَاتِيٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهِيٰكُمْ عَنْهُ فَانتَهُواْ﴾ (الحشر: 7)، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوِىٰٓ (3) إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحِيٰ(4)﴾ (النجم: 3، 4)، ويقول تعالى: ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُومِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً﴾ (النساء: 65).

ولا ريب أن هذا الحديث ونظائره مما حوته السنة النبوية؛ دحض قوي لأوهام وترهات "القرآنيين" المعاصرين من أتباع مذهب "القرآن وكفى"، الذين ينكرون أحاديث الرسولﷺ، ولا يعتبرون السنة النبوية أصلا من أصول الشريعة، علما بأن القرآن ينص على ذلك في آيات كثيرة.

ومن الآيات القرآنية المشتملة على لفظ الحكمة بمعنى السنة؛ قوله الله تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمُۥٓ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة/151)، وقوله عز وجل: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُومِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنَ انفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمُۥٓ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِے ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ (آل عمران

[69] - سنن أبي داود، المرجع السابق، ج4، ص200.

164). وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ (الجمعة 2).

قال الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله: " الحكمة كلمة مشتركة، تطلق على معان كثيرة، تطلق على النبوة، وعلى العلم والفقه في الدين، وعلى العقل، وعلى الورع، وعلى أشياء أخرى، وهي في الأصل كما قال الشوكاني رحمه الله: الأمر الذي يمنع عن السفه، هذه هي الحكمة. والمعنى: أن كل كلمة، وكل مقالة تردعك عن السفه، وتزجرك عن الباطل، فهي حكمة. وهكذا كل مقال واضح صريح، صحيح في نفسه، فهو حكمة، فالآيات القرآنية أولى بأن تسمى حكمة، وهكذا السنة الصحيحة أولى بأن تسمى حكمة بعد كتاب الله، وقد سماها الله حكمة في كتابه العظيم، كما في قوله جل وعلا: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ يعني السنة، وكما في قوله سبحانه: ﴿ يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ ﴾ الآية، فالأدلة الواضحة تسمى حكمة، والكلام الواضح المصيب للحق يسمى حكمة " انتهى من "مجموع فتاوى ابن باز".[70]

ولعل من أعظم النصوص القرآنية الجامعة لمعاني الحكمة ومجالاتها ما ورد في سورة الإسراء بدءا من قوله تعالى: ﴿لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ

---

[70] - مجموع فتاوى ومقالات متنوعة: عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الرحمن بن باز، جمع وإشراف: د. محمد بن سعد الشويعر، الناشر: رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء بالمملكة العربية السعودية. ج27، ص77.

إِلَهاً ءاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَّخْذُولًا﴾ " إلى قوله عز وجل: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ﴾. قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿ لاَّ تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَهاً ءاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَّخْذُولًا (22) *وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوٓاْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيماً (23) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً (24) رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُواْ صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُوراً (25) وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيراً (26) إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَانَ ٱلشَّيَاطِينِ وَكَانَ ٱلشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً (27) وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُوراً (28) وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً (29) إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَنْ يَّشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً (30) وَلاَ تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً (31) وَلاَ تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا (32) وَلاَ تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلاَ يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُوراً (33) وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلاَّ بِالتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا (34) وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِالْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَاوِيلًا (35) *وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا

(36) وَلاَ تَمْشِ فِي ٱلاَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلاَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا (37) كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئَةً عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً (38) ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهاً ءَاخَرَ فَتُلْقىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَّدْحُوراً(39) ﴾ (الإسراء).

آيات حكيمة وجليلة، تشتمل على أوامر، ونواه، وأحكام، ووصايا، دينية مختلفة مما له ارتباط بالأسس والمبادئ التي تخول للمسلم الحياة السعيدة في الدنيا والآخرة.

جاء في التفسير الوسيط: "ثم ختم - سبحانه - تلك الأحكام المحكمة، والتكاليف السامية، بقوله: ﴿ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهاً ءَاخَرَ فَتُلْقىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَّدْحُوراً﴾. أى: ذلك الذي أمرناك به، ونهيناك عنه - أيها الرسول الكريم - بعض ما أوحاه الله - تبارك وتعالى - عليك «من الحكمة» التي هي علم الشرائع ومعرفة الحق، والعمل به، وحذار أن تجعل بعد هذا البيان الحكيم، مع الله - تبارك وتعالى - إلها آخر - أيها المخاطب - فتلقى وتطرح في جهنم، ملوما من نفسك ومن غيرك، مدحورا أى: مبعدا من رحمة الله - تبارك وتعالى - قال صاحب الكشاف: ولقد جعل الله- تبارك وتعالى - فاتحتها - أى تلك الآيات المشتملة على تلك الأوامر والنواهي - وخاتمتها، النهى عن الشرك، لأن التوحيد هو رأس كل حكمة وملاكها ومن عدمه لم تنفعه حكمه وعلومه وإن بذّفيها الحكماء، وحك بيافوخه السماء، وما أغنت عن الفلاسفة أسفار الحكم وهم عن دين الله أضل من النعم.

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة التي اشتملت على بضع وعشرين تكليفا، والتي ابتدأت بقوله- تبارك وتعالى- ﴿وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهاً ءَاخَرَ﴾.

وانتهت بقوله - سبحانه -: ﴿وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهاً ءَاخَرَ﴾ قد ربطت قواعد السلوك والآداب: والتكاليف الفردية والاجتماعية، بإخلاص العبادة لله - تبارك وتعالى - لأن هذا الإخلاص لله-تبارك وتعالى - في العقيدة والعبادة والقول والعمل.. هو رأس كل حكمة وملاكها"[71].

ما أعظم وأحكم وأجل كلام ربنا العليم الحكيم وهو يشير إلى أن جوهر وروح الحكمة يتجسد في الربط بين القول والعمل، والعبادة والعبودية، وإخلاص الدين لله سبحانه بنفي الشرك وإثبات التوحيد الخالص الذي هو شرط وسبيل قبول الأعمال والطاعات.

2- الحكمة بمعنى العلم والفهم الصائب والفقه في الدين

قال العليم الحكيم: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ (لقمان 12).

"يخبر تعالى عن امتنانه على عبده الفاضل لقمان، بالحكمة، وهي العلم (بالحق) على وجهه وحكمته، فهي العلم بالأحكام، ومعرفة ما فيها من الأسرار والإحكام، فقد يكون الإنسان عالما، ولا يكون حكيما.

وأما الحكمة، فهي مستلزمة للعلم، بل وللعمل، ولهذا فسرت

---

[71] - التفسير الوسيط للقرآن الكريم؛ محمد سيد طنطاوي، المرجع السابق، ج8، ص355.

الحكمة بالعلم النافع، والعمل الصالح.

ولما أعطاه الله هذه المنة العظيمة، أمره أن يشكره على ما أعطاه، ليبارك له فيه، وليزيده من فضله، وأخبره أن شكر الشاكرين، يعود نفعه عليهم، وأن من كفر فلم يشكر الله، عاد وبال ذلك عليه. والله غني (عنه) حميد فيما يقدره ويقضيه، على من خالف أمره، فغناه تعالى، من لوازم ذاته، وكونه حميدا في صفات كماله، حميدا في جميل صنعه، من لوازم ذاته، وكل واحد من الوصفين، صفة كمال، واجتماع أحدهما إلى الآخر، زيادة كمال إلى كمال."[72]

إن الله عز وجل اصطفاه ومنَّ عليه بالحكمة، فكان عليه السلام يعمل بها وينشرها بين الناس، مبتدئا بابنه؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ (11) وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (12) وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ (13) وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (14) يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (15) يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ

[72] - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، المرجع السابق، ص761.

إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ (16) وَلاَ تُصَعِرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلاَ تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ ٱللَّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (17) وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ(18) ﴾ (لقمان).

آيات بينات على لسان لقمان عليه السلام، يعظ فيها ابنه مبينا له أسس الحكمة ومعالمها، ومحذرا إياه من الشرك. كما أوصاه بحسن صحبة الوالدين والإحسان إليهما، وحثه على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر على البلاء، وتجنب الكبر، واستحضار القصد النبيل في السعي والسلوك. لقدْ من الله عز وجل على لقمان عليه السلام بحسن الفَهمَ والعِلمَ والفِقهَ في الدِّينِ، والإصابةَ في القَولِ والعَمَلِ.

وأخرج ابن أبي حاتم عن مالك قوله: "وإنه ليقع في قلبي، أن الحكمة هو الفقه في دين الله، وأمر يدخله الله في القلوب من رحمته وفضله. ومما يبين ذلك أنك تجد الرجل عاقلا في أمر الدنيا، إذا نظر فيها، وتجد آخر ضعيفا في أمر دنياه، عالما بأمر دينه، بصيرا به، يؤتيه الله إياه، ويحرمه هذا. فالحكمة: الفقه في دين الله".[73]

ومما يستفاد من هذه الآيات الحكيمة أن الحكمة التي هي العلم بأحكام الدين والعمل بمقتضاها؛ هبة من الله ونعمة منه يكرم بها من يشاء من عبادة المؤمنين. وإنك لتجد العبد الذي حظي بها، قد أوتي نورا يميز به بين الحق والباطل، ويضع الأمور في مواضعها بكل يسر وتلقائية.

---

[73] - تفسير القرآن العظيم لابن أبى حاتم؛ أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمى، الحنظلى، الرازي ابن أبى حاتم (ت ٣٢٧هـ)، المحقق: أسعد محمد الطيب، الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز، المملكة العربية السعودية، الطبعة الثالثة 1419 هـ ج2، ص532.

كما يدعو إلى الله بالحكمة، وينشر الخير بين المسلمين، وينصح لهم، ويحرص على نفعهم بما يجود عليه مولاه سبحانه، بما يفتح عليه من حكم ومواعظ وإرشادات ونصائح. قال الحق سبحانه: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَاۖ﴾ (فاطر2). وأكرم بها من حكمة مهداة ورحمة ربانية أصلها ثابت وفرعها في السماء.

وهكذا فإن القرآن الكريم يقرر أن الحكمة هبة خالصة من الله عز وجل؛ قال العليم الحكيم: ﴿يُوتِي ٱلْحِكْمَةَ مَنْ يَّشَآءُۖ وَمَنْ يُّوتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدُ اُوتِيَ خَيْراً كَثِيراًۖ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلاَلْبَٰبِۖ ﴾. ولا يخفى من منطوق هذه الآية ذلك الربط الحكيم بين الحكمة الموهوبة وأولي الألباب. كما أن أولي الألباب قد نالوا، بتقواهم وقربهم من الله سبحانه، من العطايا والمنح والفتوحات الرحمانية، ما به يقوى رجاؤهم وتثلج صدورهم.

وعندما تصبح الحكمة صفة نفسية لدى المؤمن التقي، تجده تواقا إلى المعرفة الحكيمة الموافقة للحق، عاملا بأوامر الله سبحانه، متبعا لسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه. كما يكون مصيبا للحق في أقواله وأفعاله، عاملا بأعمال الخير منتهيا عن أعمال الشر. وبذلك يسعد في الدنيا والآخرة، وينتفع به من تأسى به واقتفى أثره.

الدعوة إلى الله عزوجل بالحكمة

الدعوة إلى الله عز وجل، وإلى دينه الحنيف وسنة نبيه المطهرة، من أسمى أعمال الخير وأرقى الوظائف الربانية التي أكرم الله بها رسله

وأنبياءه والصفوة المختارة من صالحي عباده الدعاة المصلحين. وقد أثنى الله سبحانه الثناء الحسن على من اصطفاهم للقيام بأعباء هذه الوظيفة الجليلة؛ إذ قال في محكم تنزيله: ﴿وَمَنَ اَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى اَ۬للَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحاً وَقَالَ إِنَّنِے مِنَ اَ۬لْمُسْلِمِينَۖ﴾ (فصلت 33)، وقوله سبحانه مبشرا الدعاة الصادقين بالفلاح في الدنيا والآخرة: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمُۥٓ أُمَّةٞ يَدْعُونَ إِلَى اَ۬لْخَيْرِ وَيَامُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ اِ۬لْمُنكَرِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ اُ۬لْمُفْلِحُونَۖ﴾ (آل عمران 104). فليستبشر بالخير كل مسلم صادق مخلص، رغبت نفسه في الانتساب إلى وظيفة الدعوة إلى الله، والأخذ بيد عباده إلى الصلاح والفلاح والصراط المستقيم.

قال العلي الكبير: ﴿اَدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ اِ۬لْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِالتِے هِيَ أَحْسَنُۖ﴾ (النحل 125)، "أي: ليكن دعاؤك للخلق مسلمهم وكافرهم إلى سبيل ربك المستقيم المشتمل على العلم النافع والعمل الصالح "بِالْحِكْمَةِ،" أي: كل أحد على حسب حاله وفهمه وقوله وانقياده.

ومن الحكمة الدعوة بالعلم لا بالجهل، والبدء بالأهم فالأهم، وبالأقرب إلى الأذهان والفهم، وبما يكون قبوله أتم، وبالرفق واللين، فإن انقاد بالحكمة، وإلا فينتقل معه بالدعوة بالموعظة الحسنة، وهو الأمر والنهي المقرون بالترغيب والترهيب. إما بما تشتمل عليه الأوامر من المصالح وتعدادها، والنواهي من المضار وتعدادها، وإما بذكر إكرام من قام بدين الله وإهانة من لم يقم به. وإما بذكر ما أعد الله للطائعين من

الثواب العاجل والآجل وما أعد للعاصين من العقاب العاجل والآجل، فإن كان (المدعو) يرى أن ما هو عليه حق. أو كان داعيه إلى الباطل، فيجادل بالتي هي أحسن، وهي الطرق التي تكون أدعى لاستجابته عقلا ونقلا.

ومن ذلك الاحتجاج عليه بالأدلة التي كان يعتقدها، فإنه أقرب إلى حصول المقصود، وأن لا تؤدي المجادلة إلى خصام أو مشاتمة تذهب بمقصودها، ولا تحصل الفائدة منها بل يكون القصد منها هداية الخلق إلى الحق لا المغالبة ونحوها"[74].

لا شك أن استعمال الحكمة في الدعوة إلى الله سبحانه، أمر واجب ومطلوب. وتتجلى حكمة الداعي إلى الله عز وجل في أمور كثيرة، منها: الرفق بالمدعوين مصداقا لقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ (آل عمران 159). وقال كذلك مخاطبا موسى وهارون عليهما السلام: ﴿ إذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ (42) فَقُولاَ لَهُۥ قَوْلَا لَّيِّناً لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ(43) ﴾ (طه). وقد يحسن بالداعية اللجوء في دعوته، إذا اقتضى الحال، إلى شيء من الشدة والقسوة كما هو بين في خطاب موسى عليه السلام لفرعون حينما طغى وتكبر: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ الاَّ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَالاَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّے لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُوراً ﴾ (الإسراء 102). فالداعية إلى الله يلزمه مراعاة ما يناسب الحال من أساليب الترغيب أو الترهيب.

---

[74] - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، المرجع السابق، ص 519.

ولنا في رسول الله ﷺ القدوة المثلى فيما يخص خلق الرفق والشفقة بالمدعوين. عن أبي أمامة .رضي الله عنه .قال: "إن فتى شابا أتى النبيَّ ﷺ فقال: يا رسول الله، ائذن لي بالزنا!، فأقبل القوم عليه فزجروه، وقالوا: مه مه، فقال: ادنه، فدنا منه قريبا، قال: فجلس، قال: أتحبه لأمك؟، قال: لا واللَّه، جعلني اللَّه فداك، قال: ولا الناس يحبونه لأمهاتهم، قال: أفتحبه لابنتك؟، قال: لا واللَّه، يا رسول اللَّه جعلني اللَّه فداك، قال: ولا الناس يحبونه لبناتهم، قال: أفتحبه لأختك؟ قال: لا واللَّه، جعلني اللَّه فداك، قال: ولا الناس يحبونه لأخواتهم، قال: أفتحبه لعمتك؟ قال: لا واللَّه، جعلني اللَّه فداك، قال: ولا الناس يحبونه لعماتهم، قال أفتحبه لخالتك؟ قال: لا واللَّه جعلني اللَّه فداك، قال: ولا الناس يحبونه لخالاتهم قال: فوضع يده عليه وقال: اللَّهمّ اغفر ذنبه وطهر قلبه، وحَصِّنْ فرْجَه، فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء".[75]

وتتجلى الحكمة أيضا في مراعاة أصناف المخاطبين بالدعوة والنصح؛ فالكبير غير الصغير، والمتعلم غير الجاهل. وقد تكون دعوة ذوي الرحم أو الجيران أولى بدعوة غيرهم.

ثم إن الداعية الحكيم اللبيب هو الذي يحرص على محبة المدعوين، بل يخبرهم بذلك كما فعل الرسول ﷺ عندما قال لمعاذ بن جبل رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: "والله إني لأحبك". فعن معاذ بن جبل .رضي الله عنه أَنَّ

---

[75] - مسند الإمام أحمد بن حنبل؛ الإمام أحمد بن حنبل (164-241 هـ)، المحقق: شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد – وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة، عدد الأجزاء: 50، الطبعة: الأولى، 1421 هـ - 2001 م. ج36، ص545.

رَسُولَ ﷺ أَخَذَ بِيَدِهِ، وَقَالَ: "يَا مُعَاذُ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ، فَقَالَ: أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ لَا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ تَقُولُ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ ".[76]

كما ينبغي تذكير المدعوين بكثرة نعم الله عليهم، ورحمته بهم، وإحسانه إليهم مما يستوجب الشكر الدائم لله عز وجل. وهذا التذكير من شأنه أن يوقظ في قلوبهم عامل الحياء من الله سبحانه، والشعور بالتقصير في عبادته وطاعته، الأمر الذي قد يجعل بعضهم يبادرون إلى التوبة والاستغفار.

وتتجلى الحكمة في الدعوة إلى الله سبحانه، في أسلوب التبشير والتيسير الذي يسلكه الداعية الحكيم في خطابه الدعوي، اقتداء وأسوة بالرسول صلوات الله وسلامه عليه، فعن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: "يَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا، وَبَشِّرُوا وَلَا تُنَفِّرُوا".[77]

ومن مظاهر الحكمة في الدعوة إلى الله وإصلاح أحوال العباد: اهتمام الداعية الحكيم بأمر الموعظة، حيث يجتهد بما أوتي من صدق وإخلاص أن تكون موعظته بليغة ومؤثرة، يختار لها الآيات الحكيمة المناسبة والأحاديث النبوية المتعلقة بموضوع الموعظة.

ويحسن بالداعية الحكيم الذي يعظ العباد ويذكرهم بخالقهم سبحانه، أن يكون مطلعا على ما كتبه بعض العلماء مما له صلة بالمواعظ والرقائق؛ مثل رسائل ابن الجوزي رحمه الله؛ "ذم الهوى"،

---

[76] - سنن أبى داود، المرجع السابق، ج2، ص86.

[77] - صحيح البخاري، المرجع السابق، ج1، ص25.

و"صيد الخاطر"، و"المدهش"، ورسائل ابن تيمية رحمه الله في الرقائق والمواعظ، وما حرره تلميذه ابن القيم رحمه الله من كتب ورسائل مثل: "الفوائد" و"مدارج السالكين".

لا تطابق ولا تماثل بين الحكمة الإسلامية والفلسفة

ذهب متفلسفة المسلمين؛ أمثال الفارابي، وابن سينا، وابن رشد، وغيرهم، إلى أن هناك تقاربا كبيرا بين معني الحكمة الإسلامية والحكمة اليونانية، وأنهما متطابقان باعتبار أن كل واحدة منهما تنشد الحقيقة، وتدعو إلى استعمال العقل. وقد دون هؤلاء المتفلسفة رسائل ومقالات في هذا الشأن؛ حيث بينوا أن جوهر الحكمة في الإسلام مطابق ومماثل لجوهر الفلسفة عند اليونان، ومن ثم دعوا عقلاء المسلمين للاهتمام بالفلسفة والاشتغال بموضوعاتها، ونشرها بين الناس مما أثار حفيظة العلماء والفقهاء، الذين انبروا للرد عليهم، ونسف آرائهم وشبهاتهم.

وكان ممن اشتهر بالدعوة إلى التفلسف؛ الفقيه المتفلسف أبو الوليد ابن رشد الأندلسي، الذي حرر كتابا في موضوع التقارب بين الحكمة اليونانية والشريعة الإسلامية، تحت عنوان: "فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال". ويتضح من خلال قراءة هذا التأليف أن مراد ابن رشد بالحكمة هو الفلسفة، فالحكمة، أي؛ الفلسفة اليونانية؛ عنده هي "صاحبة الشريعة والأخت الرضيعة".

لقد كان أبو الوليد ابن رشد معجبا أيما إعجاب بالفيلسوف اليوناني أرسطو؛ حيث عكف سنوات طويلة على قراءة كتبه التي وضع لها

شروحات وتلخيصات. وهو القائل في مقدمة تلخيصه لـ "كتاب الحيوان لأرسطو": "نحمد الله كثيراً على اختياره ذلك الرجل، أي؛ أرسطو للكمال، فوضعه في أسمى درجات الفضل البشري، والتي لم يستطع أن يصل إليها أي رجل في أي عصر. فأرسطو هو الذي أشار إليه الله تعالى بقوله: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ (المائدة: 54)"!!.

ولا يخفى على أولي الألباب أن هذا المتفلسف ومن على شاكلته قد نقضوا غزلهم بأيديهم، وأن دعواتهم الباطلة لم تجد آذانا صاغية لها؛ لاستحالة الجمع بين نقيضين، أي؛ الحكمة بمفهومها الإسلامي الشرعي، والفلسفة اليونانية الوثنية القائمة على خيالات وأوهام فلاسفتها. وكما يقول المثل العربي: "للباطل جولات ثم يضمحل". فقد صالت الفلسفة وجالت عند أهلها والمعجبين بها، ثم تكسرت على صخرة الحقيقة؛ حقيقة الوحي الإلهي.

ولقد أعجب بعض أشباه المثقفين العرب قبل بضعة عقود، بالفلسفة الاشتراكية الماركسية، والفلسفة الوجودية، والفلسفة البنيوية، وغيرها من الفلسفات الغربية الحديثة، ثم نكسوا على رؤوسهم بعد أن ذهبت آمالهم وأحلامهم أدراج الرياح.

ومن خلال قراءة وتأمل الآيات المتعلقة بالحكمة، يتبين لكل ذي بصيرة الفرق الشاسع بين الحكمة الإسلامية والحكمة الفلسفية. كما ينكشف للعاقل الحصيف كذب وسفسطة من جعل حكمة الفلاسفة كحكمة القرآن الكريم، وأن الأحرى بمن يطابق بين الحكمتين مثل المتفلسف أبو الوليد بن رشد في كتابه "فصل المقال فيما بين الحكمة

والشريعة من الاتصال"، أن يعكس العنوان ويسمي كتابه: "فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الانفصال".

الفصل الرابع:

اليقين في القرآن الكريم

اليقين لغة واصطلاحا

آيات اليقين في القرآن الكريم

اليقين في السنة النبوية

أقوال السلف في اليقين

اليقين في القرآن الكريم

1- معاني اليقين

2- درجات اليقين،

3- كفى بالموت يقينا

4- ثمرات اليقين.

اليقين في القرآن الكريم

اليقين لغة واصطلاحا

"يقن: اليقين: العلم وإزاحة الشك وتحقيق الأمر، وقد أيقن يوقن إيقاناً، فهو موقن، ويقن ييقن يقناً، فهو يقن."[78]

و"اليقين: تحقيق التصديق بالغيب بإزالة كل شك وريب، وقيل: اليقين: نقيض الشك، وقيل: اليقين: رؤية العيان بنور الإيمان، وقيل: اليقين: ارتفاع الريب في مشهد الغيب، وقيل: اليقين: العلم الحاصل بعد الشك".[79]

آيات اليقين في القرآن الكريم

ورد لفظ "اليقين" في القرآن فيما يلي من الآيات البينات:

قال الحق سبحانه: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَاتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ (الحجر 99).

وقال الحي القيوم: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ (الواقعة 95)

وقال العزيز الحكيم: ﴿إِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ (الحاقة 51).

وقال اللطيف الخبير: ﴿حَتَّىٰٓ أَتِىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾ (المدثر 47)

وقال العلي القدير: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾ (التكاثر 5).

وقال سبحانه: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُّ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ (النمل 22).

---

78 - لسان العرب، ابن منظور، المرجع السابق، ج13، ص457.

79 - التعريفات، الجرجاني، ص259.

اليقين في السنة النبوية

عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: "لا تُرْضِيَنَ أَحَداً بسخط اللهِ، ولا تَحْمَدَنّ أَحداً على فَضْلِ الله، ولا تَذُمَّنَّ أَحداً على ما لم يُؤتِكَ اللهُ، فإِنَّ رِزْقَ الله لا يَسُوقُه إليك حِرْصَ حِرْيصٍ، ولا يَرُدُّه عنك كَراهِيَةُ كارِه، فإِنَّ الله بَعْدِله وقِسْطِه جعل الرَّوْح والفَرَح في الرّضَا واليَقِين، وجعل الهَمَّ والحُزْنَ فى الشَكِّ والسّخط"[80].

. وعن عبد الله بن عُمرَ، قال: قَلَّما كَانَ رَسولُ اللهِ ﷺ يَقومُ من مَجْلسٍ حتَّى يَدْعُوَ بهؤُلاءِ الدَّعَواتِ لأصْحابهِ: "اللَّهُمَّ اقْسمْ لَنا من خَشْيتكَ ما يَحُولُ بَيْنَنا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ، ومن طَاعتكَ ما تُبلِّغُنا بهِ جَنَّتكَ، ومن اليَقينِ ما تُهوِّنُ بهِ عَليْنا مُصِيباتِ الدُّنْيا، وَمَتِّعْنا بأسْماعِنا وَأبْصارِنا وَقوَّتِنا ما أحْيَيْتنا، وَاجْعلهُ الوَارثَ مِنَّا، وَاجْعلْ ثَأْرنا على من ظَلَمَنا، وَانْصُرْنا على من عَادَانا، وَلا تَجْعلْ مُصِيبتنا في دِيننا، ولا تَجْعلِ الدُّنْيا أكْبرَ هَمِّنا ولا مَبْلَغَ عِلْمنا، وَلا تُسلِّطْ عَليْنا من لا يَرْحَمُنا"[81].

وعن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال قال رسول الله ﷺ: "صلاح أول هذه الأمة بالزهد والتقوى، وهلاك آخرها بالبخل والفجور.[82]"

---

[80] - المعجم الكبير، الطبرانى؛ سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمى الشامى، أبو القاسم الطبراني (ت 360)، المحقق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية – القاهرة، ط2، د.ت.، ج 10/ ص 215.

[81] - سنن الترمذى، الترمذى؛ المرجع السابق، ج6، ص109.

[82] - شعب الإيمان؛ أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقى، حققه وراجع نصوصه وخرج أحاديثه: د عبد العلى عبد الحميد حامد، أشرف على تحقيقه وتخريج أحاديثه: مختار أحمد الندوى صاحب الدار السلفية ببومباى – الهند، الناشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، الطبعة: الأولى، 1423 هـ - 2003 م، ج13، ص291.

أقوال السلف في اليقين

كَتَبَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ إِلَى الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ أَنْ: عِظْنِي وَأَوْجِزْ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ الْحَسَنُ: "أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ رَأْسَ مَا هُوَ مُصْلِحُكَ وَمُصْلِحٌ بِهِ عَلَى يَدَيْكَ الزُّهْدُ فِي الدُّنْيَا، وَإِنَّمَا الزُّهْدُ بِالْيَقِينِ، وَالْيَقِينُ بِالتَّفَكُّرِ، وَالتَّفَكُّرُ بِالِاعْتِبَارِ، فَإِذَا أَنْتَ تَفَكَّرْتَ فِي الدُّنْيَا لَمْ تَجِدْهَا أَهْلًا أَنْ تَبِيعَ بِهَا نَفْسَكَ، وَوَجَدْتَ نَفْسَكَ أَهْلًا أَنْ تُكْرِمَهَا بِهَوَانِ الدُّنْيَا، الزهد الكبير، فَإِنَّمَا الدُّنْيَا دَارُ بَلَاءٍ، وَمَنْزِلُ غَفْلَةٍ"[83].

وقال العلامة محمد بن القيم رحمه الله: "اليقين من الإيمان بمنزلة الروح من الجسد، وبه تفاضل العارفون، وفيه تنافس المتنافسون، وإليه شمر العاملون، وهو مع المحبة ركنان للإيمان، وعليهما ينبني وبهما قوامه، وهما يُمدان سائر الأعمال القلبية والبدنية، وعنهما تصدر، وبضعفهما يكون ضعف الأعمال، وبقوتهما تقوى الأعمال، وجميع منازل السائرين إنما تُفتتح بالمحبة واليقين، وهما يثمران كل عمل صالح، وعلم نافع، وهدى مستقيم".[84]

اليقين في القرآن الكريم

سيشتمل موضوع اليقين في القرآن الكريم على أربعة محاور وهي: 1- معاني اليقين، 2- درجات اليقين، 3- كفى بالموت يقينا، 4- ثمرات اليقين.

---

[83] - الزهد لابن أبي الدنيا؛ أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس البغدادي الأموي القرشي المعروف بابن أبي الدنيا (ت 281هـ)، الناشر: دار ابن كثير، دمشق الطبعة الأولى 1420 هـ - 1999، ص 150.

[84] - مدارج السالكين، المرجع السابق، ج2، ص 374.

1- معاني اليقين

ورد لفظ اليقين في القرآن الكريم على خمسة معانٍ تختلف باختلاف المظان والسياقات ضمن النسق القرآني وهي:

اليقين بمعنى الصدق والتصديق؛ قال تعالى: ﴿ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ (النمل 22) وقال الحق سبحانه: ﴿وَبالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ (البقرة 4)، يعني يصدقون بوجودها.

أ- اليقين بمعنى المشاهدة؛ قال عز وجل: ﴿ كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴾ (التكاثر 5)، يعني علم العيان والمشاهدة.

ج- اليقين بمعنى العلم؛ قال الحق سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلذِينَ اَخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِے شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ اِلاَّ اَتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناًۢ ﴾ (النساء 157).

د- اليقين بمعنى الموت؛ قال العليم الحكيم: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَاتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ (الحجر 99).

2- درجات اليقين

درجات اليقين في القرآن الكريم ثلاث وهي:

أ- **علم اليقين:** وهو العلم الراسخ في القلب المتعلق بشرع الله سبحانه، ووحيه وما جاء على ألسنة رسله عليهم الصلاة والسلام، وما ورد في سنة رسوله ﷺ، والتصديق العميق بما بالغيب من بعث وحساب وجنة ونار أعاذنا الله والمسلمين منها.

ب- عين اليقين: وهي أعلى درجة من علم اليقين، لأن مشاهدة الشيء ومعاينته أقوى وأثبت في القلب من مجرد العلم به. وإذا تجلت حقيقة الغيب للعيان، اطمأن قلب المؤمن وذاق برد اليقين.

قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ (1) حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ (2) كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (3) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (4) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ (5) لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ (6) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ (7) ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ(8) ﴾ (سورة التكاثر).

قال المفسر الإمام القرطبي رحمه الله: "أي شغلكم المباهاة بكثرة المال والعدد عن طاعة الله، حتى متم ودفنتم في المقابر. وقيل ألهاكم: أنساكم. التكاثر أي من الأموال والأولاد، قاله ابن عباس والحسن. وقال قتادة: أي التفاخر بالقبائل والعشائر. وقال الضحاك: أي ألهاكم التشاغل بالمعاش والتجارة. يقال: لهيت عن كذا) بالكسر (ألهى لهيا ولهيانا: إذا سلوت عنه، وتركت ذكره، وأضربت عنه. وألهاه: أي شغله. ولهاه به تلهية أي علله. والتكاثر: المكاثرة. قال مقاتل وقتادة وغيرهما: نزلت في اليهود حين قالوا: نحن أكثر من بني فلان، وبنو فلان أكثر من بني فلان، ألهاهم ذلك حتى ماتوا ضلالا. وقال ابن زيد: نزلت في فخذ من الأنصار. وقال ابن عباس ومقاتل والكلبي: نزلت في حيين من قريش: بني عبد مناف، وبني: سهم، تعادوا وتكاثروا بالسادة والأشراف في الإسلام، فقال كل حي منهم نحن أكثر سيدا، وأعز عزيزا، وأعظم نفرا، وأكثر عائذا، فكثر بنو عبد مناف سهما. ثم تكاثروا بالأموات، فكثرتهم سهم، فنزلت ألهاكم التكاثر بأحيائكم فلم ترضوا حتى زرتم المقابر مفتخرين

بالأموات. وروى سعيد عن قتادة قال: كانوا يقولون نحن أكثر من بني فلان، ونحن أعد من بني فلان؛ وهم كل يوم يتساقطون إلى آخرهم، والله مازالوا كذلك حتى صاروا من أهل القبور كلهم. وعن عمرو بن دينار حلف أن هذه السورة نزلت في التجار. وعن شيبان عن قتادة قال: نزلت في أهل الكتاب.

قلت: الآية تعم جميع ما ذكر وغيره. وفي صحيح مسلم عن مطرف عن أبيه قال: أتيت النبي ﷺ وهو يقرأ ألهاكم التكاثر قال: "يقول ابن آدم: مالي مالي! وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت.

وروى البخاري عن ابن شهاب: أخبرني أنس بن مالك أن رسول الله - ﷺ قال: "لو أن لابن آدم واديا من ذهب، لأحب أن يكون له واديان، ولن يملأ فاه إلا التراب، ويتوب الله على من تاب ." قال ثابت عن أنس عن أبي: كنا نرى هذا من القرآن، حتى نزلت ألهاكم التكاثر. قال ابن العربي: وهذا نص صحيح مليح، غاب عن أهل التفسير فجهلوا والحمد لله على المعرفة. وقال ابن عباس: قرأ النبي ﷺ ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ قال:" تكاثر الأموال: جمعها من غير حقها، ومنعها من حقها، وشدها في الأوعية"[85].

إن هذه السورة بآياتها الحكيمة من أبلغ السور القرآنية وأقواها تأثيرا في القلوب المؤمنة، بما تتضمنه من معاني الوعيد المتعلق بيوم القيامة، وأهوالها وجحيمها. والخطاب موجه فيها إلى الغافلين، الذين ألهاهم التكاثر وحطام الدنيا، ونسوا ذكر الله والآخرة، حتى زاروا المقابر. والسورة

[85] - الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، المرجع السابق، ج20، ص168.

تشير أيضا إلى أن الانغماس في ملذات الدنيا وشهواتها، يحجب العبد عن الغاية من خلقه ووجوده، أي؛ لماذا خلقه الله؟ لقد نسي أن الغاية من خلقه؛ عبادة ربه، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَالِانسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾. وهذا النسيان الرهيب حال بينه وبين علم اليقين، الذي يجعل العبد موصولا بالآخرة. فيا حسرة على العباد الغافلين، ويا لهول ما ينتظرهم، وقد قطعوا الصلة بربهم ومعبودهم الحق.

وهذه السورة تتضمن درجتين من درجات اليقين الثلاث؛ وهما: علم اليقين، وعين اليقين. فعِلم اليقين هو العلم الناتج عن الإيمان بالله ورسله، والعمل بما أوجبه سبحانه على عباده، واجتناب ما نهاهم عنه. والإيمان بعالم الغيب، وبما أخبرنا به في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ فيما يخص أمور المعاد والحساب والجنة والنار. فالإيمان بكل هذه الأمور، والعمل بمقتضاها هو علم اليقين الذي إذا وقر في القلب أذهب عنه كل ريب وشك.

والعلاقة بين اليقين والعلم علاقة تعاضد وتكامل، وكلاهما يحتاج إلى الآخر ويكمله ويقويه ويضبطه. "وَالْيَقِينُ يَحْمِلُهُ عَلَى الْأَهْوَالِ، وَرُكُوبِ الْأَخْطَارِ. وَهُوَ يَأْمُرُ بِالتَّقَدُّمِ دَائِمًا .فَإِنْ لَمْ يُقَارِنْهُ الْعِلْمُ: حُمِلَ عَلَى الْمَعَاطِبِ. وَالْعِلْمُ يَأْمُرُ بِالتَّأَخُّرِ وَالْإِحْجَامِ. فَإِنْ لَمْ يَصْحَبْهُ الْيَقِينُ قَعَدَ بِصَاحِبِهِ عَنِ الْمَكَاسِبِ وَالْغَنَائِمِ. وَاللَّهُ أَعْلَم".[86]

واليقين؛ "روح أعمال القلوب التي هي أرواح أعمال الجوارح"[87]. وهذا

[86] - مدارج السالكين، المرجع السابق، ج2، ص377.

[87] - مدارج السالكين المرجع السابق، ج2، ص 378.

الكلام الموجز الدقيق، يشير إلى الرابطة المحكمة بين الظاهر والباطن فيما يتعلق بأعمال العباد، وسلوكهم، ومعاملاتهم. ذلك لأن الأعمال والأفعال التي تقوم بها الجوارح، والتي يقصد بها الخير والصلاح والطاعة؛ كالصلاة، والصوم، والحج، والصدقة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وغيرها من أعمال البر والقربات، قد لا تزن عند الله جناح بعوضة، إذا لم تكن قائمة ومؤسسة على أعمال القلوب؛ من حسن النية، والإخلاص، والصدق، والتجرد.

ومن هنا فإن المسلم إذا أراد تخليص وتجريد قلبه من قيود الرياء، والعجب، والغرور، والنفاق، وسيئ الأخلاق، ورام اكتساب صفات الإخلاص، والصدق، وأخواتها من الصفات المحمودة، فعليه بطرق باب اليقين الذي هو روح أعمال القلوب. وكما أن الباب المغلق لا يفتح إلا بمفتاحه، فكذلك باب الأعمال الصالحة المتعلقة بالقلوب والجوارح، لا تفتح إلى بمفتاح اليقين.

هذا وإن اليقين عنصر فعال في تقوية العمل وتزكيته؛ جاء في وصية لقمان عليه السلام لابنه: "يا بني لا يستطاع العمل إلا باليقين، ولا يعمل المرء إلا بقدر يقينه، ولا يفتر عامل حتى ينقص يقينه".[88] إن العمل واليقين عنصران من أهم العناصر الأساسية التي تدخل في بناء نفسية المسلم وشخصيته، وتُقوِّم سلوكه، وتدفعه إلى تخطي العقبات في سبيل تحقيق الأهداف النبيلة. كما لا يمكن تصور وجود كيان حضاري لا يشتمل على عنصر العمل المقرون باليقين. وإذا تأملنا التاريخ الإسلامي

[88] - كتاب اليقين، الإمام الحافظ عبد الله بن أبي الدنيا، دار الكتب العليمة، بيروت، ص20.

ألفيناه زاخرا ومليئا بمشاهد، ووقائع اجتماعية، وانتصارات وإنجازات مختلفة، تلك التي لم تكن لتتحقق لولا التمسك بروح العمل الدؤوب مع تمثل المعاني العميقة لعنصر اليقين وتذوقها.

ج- **حق اليقين:** وهو الانتقال من المعاينة إلى الإحساس والشعور والتذوق. قال الحق سبحانه: ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ (91) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ (92) وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ (93) فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنَ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ (94) وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ (95) فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ (96) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (97) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ (98) فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ(99) ﴾ (الواقعة).

"هذه الأحوال الثلاثة هي أحوال الناس عند احتضارهم: إما أن يكون من المقربين، أو يكون ممن دونهم من أصحاب اليمين. وإما أن يكون من المكذبين الضالين عن الهدى، الجاهلين بأمر الله ; ولهذا قال تعالى: ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ﴾ أي: المحتضر، ﴿مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾. وهم الذين فعلوا الواجبات والمستحبات، وتركوا المحرمات والمكروهات وبعض المباحات، ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴾ أي: فلهم روح وريحان، وتبشرهم الملائكة بذلك عند الموت، كما تقدم في حديث البراء: أن ملائكة الرحمة تقول: " أيتها الروح الطيبة في الجسد الطيب كنت تعمرينه، اخرجي إلى روح وريحان، ورب غير غضبان" .

قال علي بن طلحة، عن ابن عباس: ﴿ فَرَوْحٌ ﴾ يقول: راحة وريحان، يقول: مستراحة. (ص: 549) وكذا قال مجاهد: إن الروح: الاستراحة.

وقال أبو حزرة: الراحة من الدنيا. وقال سعيد بن جبير، والسدي: الروح: الفرح. وعن مجاهد: ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ ﴾: جنة ورخاء. وقال قتادة: فروح ورحمة. وقال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير: ﴿ وَرَيْحَانٌ ﴾: ورزق.

وكل هذه الأقوال متقاربة صحيحة، فإن من مات مقربا حصل له جميع ذلك من الرحمة والراحة والاستراحة، والفرح والسرور والرزق الحسن، ﴿ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴾.

وقال أبو العالية: لا يفارق أحد من المقربين حتى يؤتى بغصن من ريحان الجنة، فيقبض روحه فيه.

وقال محمد بن كعب: لا يموت أحد من الناس حتى يعلم أمن أهل الجنة هو أم (من) أهل النار؟"[89].

"وقوله: ﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ (أي: وأما إن كان المحتضر من أصحاب اليمين، ﴿ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنَ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴾ أي: تبشرهم الملائكة بذلك، تقول لأحدهم: سلام لك، أي: لا بأس عليك، أنت إلى سلامة، أنت من أصحاب اليمين.

وقال قتادة وابن زيد: سلم من عذاب الله، وسلمت عليه ملائكة الله. كما قال عكرمة تسلم عليه الملائكة، وتخبره أنه من أصحاب اليمين. (ص: 551) وهذا معنى حسن ويكون ذلك كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا

---

[89] - تفسير ابن كثير، المرجع السابق ج 8 ص 38.

ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ (29) نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (30) نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ (31) ﴾ (فصلت).

وقال البخاري: ﴿ فَسَلَٰمٞ لَّكَ ﴾ أي: مسلم لك، أنك من أصحاب اليمين. وألغيت " إن " وهو: معناها، كما تقول: أنت مصدق مسافر عن قليل. إذا كان قد قال: إني مسافر عن قليل. وقد يكون كالدعاء له، كقولك: سقيا لك من الرجال، إن رفعت " السلام " فهو من الدعاء.

وقد حكاه ابن جرير هكذا عن بعض أهل العربية، ومال إليه، والله أعلم.

وقوله: ﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ (95) فَنُزُلٞ مِّنۡ حَمِيمٖ (96) وَتَصۡلِيَةُ جَحِيمٍ (97) ﴾ أي: وأما إن كان المحتضر من المكذبين بالحق، الضالين عن الهدى، ﴿ فَنُزُلٞ ﴾ أي: فضيافة ﴿ مِّنۡ حَمِيمٖ ﴾ وهو المذاب الذي يصهر به ما في بطونهم والجلود، ﴿ وَتَصۡلِيَةُ جَحِيمٍ ﴾ أي: وتقرير له في النار التي تغمره من جميع جهاته.

ثم قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلۡيَقِينِ ﴾ أي: إن هذا الخبر لهو حق اليقين الذي لا مرية فيه، ولا محيد لأحد عنه"[90].

إن أحوال المقربين وأصحاب اليمين والمكذبين الضالين عند الاحتضار؛ هو الحق الذي لا مرية فيه، حيث يتجلى فيه حق اليقين الذي

---

[90] - تفسير ابن كثير، المرجع السابق ج 8 ص 37.

يفيد الذوق والشعور. فالمقربون ذاقوا حلاوة الروح والريحان ونسائم الجنة الموعودة. وأصحاب اليمين طمأنتهم الملائكة، وبشرتهم بوعد الله كذلك. بينما ذاق المكذبون الضالون مرارة الحسرة والندامة، مصحوبة بآلام خروج النفس، بسبب شدة وقساوة الملائكة المكلفين بنزع أنفس المشركين.

وهكذا فإن المؤمنين يسعدون ويتنعمون حال تحققهم باليقين الحق عند احتضارهم، بينما يشقى المشركون ويتألمون في الحال ذاته. أي؛ أن حق اليقين عندما تجلى للجميع، شهد وعاين وذاق كل من الفريقين ما يناسبه ويستحقه من حلاوة أو مرارة عين اليقين وحق اليقين. والله غالب على أمره وهو العزيز الحكيم.

ثم إن يقين الكفار والمشركين فيما يتعلق بموقفهم من الوحي ورسالات الرسل عليهم السلام، يتراوح بين الشك والجحود؛ قال الحق سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ قُلْتُمْ منكرين لذلك: ﴿مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ (الجاثية 32). أي؛ غلب عليهم الظن والشك فيما يخص مجيء الساعة. وقال العليم الحكيم: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ (النمل 14). اي؛ كفروا بها مع حصول اليقين لديهم بأنها الحق. وجحودهم لم يكن عن شك وريب في حدوثها، وإنما عن استكبار وطغيان وبغي.

3- كفى بالموت يقينا

قال الحق سبحانه: ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ (الحجر 99).

جاء في التفسير الوسيط لطنطاوي: "والمراد بالأمر بالعبادة فى قوله تعالى: ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾: المداومة عليها وعدم التقصير فيها. والمراد باليقين: الموت، سمى بذلك لأنه أمر متيقن لحوقه بكل مخلوق. أى: ودم، أيها الرسول الكريم، على عبادة ربك وطاعته ما دمت حيا، حتى يأتيك الموت الذى لا مفر من مجيئه فى الوقت الذى يريده الله تعالى.

ومما يدل على أن المراد باليقين هنا الموت قوله تعالى حكاية عن المجرمين: ﴿ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (42) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (43) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (44) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (45) حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ (46)﴾" أى: الموت.

ويدل على ذلك أيضًا ما رواه البخارى عن أم العلاء " أن رسول الله ﷺ لما دخل على عثمان بن مظعون وقد مات، قالت: قلت: رحمة الله عليك أبا السائب، فشهادتى عليك لقد أكرمك الله. فقال رسول الله ﷺ: "وما يدريك أن الله قد أكرمه... أما هو فقد جاءه اليقين أى الموت وإنى لأرجو له الخير""[91].

ولعل في إطلاق إسم اليقين على الموت دلالة على أن الموت يقين ما بعده يقين؛ إذ لا يشك أحد، مسلما كان أو كافرا، في أن الموت سيدركه يوما ما لا محالة. فقد يشك الكافر في وجود الجنة والنار والملائكة

[91]- التفسير الوسيط، المرجع السابق، ج8، ص85.

والجن، لكنه رغم أنفه يؤمن بالموت ولو عاش آلاف السنين. ثم إن تسمية الموت باليقين يشير إلى انفصال الإنسان عن عالم وحياة قد يكتنفهما أحوال تدعو إلى الشك أو الوهم والخيال، واتصاله بعالم لا محدود أبدي يقيني لا ريب فيه.

ومن أكثر الناس ذوقا لألم الشك وإحساسا بمعاناته: الملاحدة واللادينيون. والسبب في معاناتهم وشقائهم، يرجع إلى الصراع الباطني بين الفطرة القائمة على اليقين في وجود الله عز وجل، والإلحاد الطارئ المؤسس على الشك. كما أن أكثر الناس ذوقا لبرد اليقين وإحساسا بلذته ونعيمه: المؤمنون الصادقون المحبون لله ولرسوله ولدينه.

ومما يؤسف له أن تجد من بين المسلمين من يقترف الذنوب والمعاصي، متماديا في ذلك كأنه يشك في الموت ويوم الحساب، مع علمه بأنهما آتيان لا محالة. قال الحسن البصري رحمه الله: "ما رأيت يقينا لا شك فيه أشبه بشك لا يقين فيه من الموت". إن شكه هذا شك إحساس وشعور، وليس شك علم وعقيدة، بمعنى أن هذا المسلم الغافل كلما أكثر من فعل الذنوب والمعاصي،ازداد تبلد شعوره وإحساسه الباطني إزاء الحقائق الغيبية من موت، وقبر، ومحشر، وحساب؛ إذ يضعف أثر هذه الحقائق في نفسه، بحيث لو تذكرها واستحضرها في قلبه ووعيه، أو وقعت عيناه على مشاهد الموت من حوادث أو دفن، فإنه قلما يتأثر أو ينزجر. وهذا لعمري من أخطر أنواع الشك لدى المسلم الغافل، وهو شك عملي وليس شكا عقديا. لأن هذا المسلم يعتقد بوجود الآخرة، لكنه بسبب غفلته عنها وعدم الاستعداد لها، يغدو كأنما يشك فيها. ولا ينفعه

اعتقاده وإيمانه بوجودها إذا لم يعمل بها. يقول الحسن البصري أيضا: "الإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل".

قال المفسر سيد قطب رحمه الله: "ويلفت النظر في التعبير ذكر كلمة الحق: ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِالْحَقِّ ﴾.. وهي توحي بأن النفس البشرية ترى الحق كاملاً وهي في سكرات الموت. تراه بلا حجاب، وتدرك منه ما كانت تجهل وما كانت تجحد، ولكن بعد فوات الأوان حين لا تنفع رؤية، ولا يجدي إدراك، ولا تقبل توبة، ولا يحسب إيمان. وذلك الحق هو الذي كذبوا به فانتهوا إلى الأمر المريج!.. وحين يدركونه ويصدقون به لا يجدي شيئاً ولا يفيد!

ومن سكرة الموت، إلى وهلة الحشر، وهول الحساب: ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ (20) وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ (21) لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ (22) وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ (23) أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (24) مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ (25) ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ (26) ۞قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ (27) قَالَ لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ (28) مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ(29) ﴾. وهو مشهد يكفي استحضاره في النفس لتقضي رحلتها كلها على الأرض في توجس وحذر وارتقاب. وقد قال رسول الله ﷺ: "كيف أنعم، وصاحب القرن قد التقم القرن، وحنى جبهته، وانتظر أن يؤذن له؟" قالوا: يا رسول الله، كيف نقول؟ قال ﷺ: "قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل" فقال القوم: حسبنا الله

ونعم الوكيل. ﴿ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾.. جاءت كل نفس. فالنفس هنا هي التي تحاسب، وهي التي تتلقى الجزاء. ومعها سائق يسوقها وشاهد يشهد عليها. قد يكونان هما الكاتبان الحافظان لها في الدنيا. وقد يكونان غيرهما. والأول أرجح. وهو مشهد أشبه شيء بالسوق للمحاكمة. ولكن بين يدي الجبار.

وفي هذا الموقف العصيب يقال له: ﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾.. قوي لا يحجبه حجاب"[92].

لكن حجاب الغفلة يهيمن في الدنيا على قلوب الغافلين والمعرضين عن ذكر الله وأوامره. ولذلك كان الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول لأصحابه: "تعالوا نجدد إيماننا"، إشارة منه إلى أن الإيمان يبلى ويضعف، فينبغي تجديده وإحياؤه باليقين من خلال الذكر، ومدارسة الوحي والعلم.

واليقين يورث المؤمن الصالح فوائد عظيمة، ويجعله أقرب إلى الله سبحانه، فيجتهد في طاعته والتقرب إليه، وتصبح الآخرة أقرب من أن يرحل إليها. قال الله عز وجل عن المؤمنين: ﴿ وَالذِينَ يُومِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (3) أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدىً مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ (4) ﴾. (البقرة 3-4).

واليقين يورث صاحبه الزهد في الدنيا وقصر الأمل، فيدرك أن الدنيا

---

92 - في ظلال القرآن؛ سيد قطب، دار الشروق، الطبعة الخامسة والعشرون 1417هج-1996م، القاهرة، ج6، ص3364.

ليست موطناً له، وأنه فيها كالمسافر يحتاج إلى مثل زاد الراكب، ولهذا لما قال النبي ﷺ لأصحابه: "قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ"، فَقَالَ عُمَيْرُ بْنُ الْحُمَامِ الْأَنْصَارِيُّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ جَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ قَالَ: "نَعَمْ" قَالَ: بَخٍ بَخٍ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "مَا يَحْمِلُكَ عَلَى قَوْلِكَ بَخٍ بَخٍ" قَالَ: لا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِلا رَجَاءَةَ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِهَا، قَالَ: "فَإِنَّكَ مِنْ أَهْلِهَا"، فَأَخْرَجَ تَمَرَاتٍ مِنْ قَرَنِهِ فَجَعَلَ يَأْكُلُ مِنْهُنَّ ثُمَّ قَالَ: لَئِنْ أَنَا حَيِيتُ حَتَّى آكُلَ تَمَرَاتِي هَذِهِ إِنَّهَا لَحَيَاةٌ طَوِيلَةٌ فَرَمَى بِمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ التَّمْرِ ثُمَّ قَاتَلَهُمْ حَتَّى قُتِلَ"[93]

وهكذا فإن القلب إذا باشره اليقين واستغرقه، قَوِي صاحبه على القيام بالأعمال الجليلة التي لولا اليقين لعجز عن القيام بها. بل لما حدثته نفسه بذلك. وإذا كان العلم لازما للقيام بما أمر الله به، فإن اليقين لا يقل عنه لزوما لكونه يحمل العبد على فعل ما أمر به، إذ لا يكفي العلم بوجوب طاعة الله للقيام بها وبمقتضياتها. فلا بد من توفر القلب على اليقين الذي يدفع العبد ويسوقه، بإذن الله إلى الخضوع والطاعة وفعل الأوامر واجتناب النواهي. فلا غرو أن تجد في سيرة الصحابة رضوان الله عليهم، أروع الأمثلة على اقتران العلم باليقين في أعمالهم، وسلوكهم، ومعاملاتهم، ومواقفهم العظيمة.

فهذا الصحابي الجليل حرام بن ملحان رضي الله عنه حين طعن في ظهره غدراً يوم حادثة بئر معونة، ما كان منه إلا أن هتف قائلاً: "فزت ورب الكعبة". إن يقين هذا الصحابي بوعد الله سبحانه، حال بينه وبين

---

93 - صحيح مسلم، المرجع السابق، ج3، ص509.

الشعور بألمه، مستحضرا في قلبه نعيم وعد الله والفوز بالجنة.

وقد روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قوله: "لو رأيت الجنة والنار ما ازددت يقينا لأني رأيتهما بعيني رسول الله ﷺ الذي قال فيه ربه: ﴿مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ (النجم 17).

إنه اليقين الذي إذا خالط شغاف القلب، حدثت لصاحبه الكرامات، وحقق الله على يديه من الإنجازات والبطولات ما يبهر العقول والألباب. فما أحلى هذه اللحظات الروحانية السامية، التي يتنعم بها المجاهدون، والدعاة الصادقون المخلصون، وغيرهم ممن اجتباهم الله وأكرمهم بمحبته وطاعته.

4- ثمرات اليقين

من ثمرات اليقين المستنبطة من القرآن الكريم، ما يلي:

1- الإخلاص في القول والعمل

الإخلاص من الأعمال القلبية التي لا تصح الأعمال التكليفية وأعمال البر والطاعات، إلا بوجوده فيها، لأن الله المعبود لا يقبل عملا مشوبا بالرياء والشرك وإن قلَّ. فالإخلاص شرعا هو إفراد المعبود بالعبادة والطاعة، والتبري من كل ما سواه، مع تصفية العقيدة والعبادة من كل شوب ودَخَن.

والإخلاص من أهم أعمال القلوب وأعظمها قدرا ومنزلة والتي لا يصح الإيمان إلا بها، ومثلها في منزلتها مثل محبة الله ورسوله، والخوف من الله والرجاء له، وما أشبه ذلك من أعمال القلوب التي تعتبر من

أصول الإيمان الصحيح والتوحيد الخالص.

قال تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴾ (البينة 5).

وعن أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري، رضي الله عنه، قال: سُئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعةً ويقاتل حميَّةً، ويقاتل رياءً؛ أيُّ ذلك في سبيل الله ؟ فقال رسول الله ﷺ: "مَن قاتل لتكونَ كلمة الله هي العليا ؛ فهو في سبيل الله".[94]

و ثبت في الحديث الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن أول الناس يُقضى يوم القيامة عليه رجلٌ استشهد فأُتيَ به فعرَّفه نعمَه فعرفها، قال فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، قال كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال هو جريء، وقد قيل، ثم أمر به فسُحبَ على وجهه حتى ألقي في النار، ورجلٌ تعلَّم العلم وعلَّمه وقرأ القرآن فأتي به فعرَّفه نعمَه فعرفها، قال فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن، قال كذبت، ولكنك تعلمت ليقال عالم وقرأت القرآن ليقال هو قارئ، فقد قيل ثم أمر به فسُحبَ على وجهه حتى ألقي في النار، ورجلٌ وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال كذبت، ولكنك فعلت ليقال هو جواد، فقد قيل ثم أمر به فسُحبَ على وجهه ثم

---

[94] - متفق عليه.

ألقي في النار".[95]

قال الإمام النووي: "قوله ﷺ في الغازي والعالم والجواد وعقابهم على فعلهم ذلك لغير الله وإدخالهم النار دليلٌ على تغليظ تحريم الرياء وشدة عقوبته وعلى الحث على وجوب الإخلاص في الأعمال كما قال الله تعالى: "وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين"، وفيه أن العمومات الواردة في فضل الجهاد إنما هي لمن أراد الله تعالى بذلك مخلصاً، وكذلك الثناء على العلماء وعلى المنفقين في وجوه الخيرات، كله محمولٌ على من فعلَ ذلك لله تعالى مخلصاً".[96]

يتبين مما ذُكر أن أن القرآن الكريم والسنة النبوية يؤكدان على أهمية الإخلاص ووجوبه في سائر أعمال الطاعات والقربات. ومما لا شك فيه أن الإخلاص من أعظم ثمرات اليقين الذي يجعل صاحبه حريصا على اجتناب الرياء وكل ما يمكن أن يفسد عبادته، ويبطل أعماله الخيرية فتصبح هباء منثورا لا وزن لها عند الله سبحانه. فتجده يلوم نفسه ويجاهدها حاملا إياها على التواضع والخضوع وإخلاص العمل لله عز وجل. ولولا قوة اليقين الكامنة في قلبه ما استطاع تذوق الإخلاص ومحبته.

2-الرضا بقضاء الله وقدره

قال ﷺ : "عَجَبًا لأمْرِ المُؤمنِ إنَّ أمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خيرٌ، ولَيسَ ذلِكَ لأَحَدٍ إلاَّ للمُؤْمِنِ: إنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكانَ خَيرًا لَهُ، وإنْ أصَابَتْهُ ضراءُ صَبَرَ

---

[95] - صحيح مسلم، سبق تخريجه.

[96] - شرح النووي على صحيح مسلم، المرجع السابق، ج13، ص50.

فَكانَ خَيْرًا لَهُ"[97]. فاليقين يجعل المسلم المؤمن مطمئنا راضيا بقضاء الله وقدره، شاكرا لنعم الله سبحانه وتعالى راضيا بما قسمه الله عز وجل له، لا يحسد غيره ولا يسعى إلى ما أعطى الله عز وجل غيره، بل هو قنوع راضٍ بما آتاه الله.

"وقيل: إذا استكمل العبدُ حقيقةَ اليقين صار البلاءُ عنده نعمة، والمحنةُ مِنْحة، فالعلمُ أولُ درجات اليقين؛ ولهذا قيل: العلمُ يستعملُك، واليقينُ يَحْمِلُك، فاليقينُ أفضلُ مواهب الربِّ لعبده، ولا تثبتُ قدمُ الرضا إلا على درجة اليقين"[98].

قال الله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ (التغابن 11)؛ "أي ومن أصابته مُصيبة فعلم أنها بقضاء الله وقدره، فصبر واحتسب، واستسلم لقضاء الله هدى الله قلبه، وعوَّضه عما فاته من الدنيا هدىً في قلبه، ويقينًا صادقًا، وقد يخلف عليه ما كان أُخذ منه أو خيرًا منه، وقال ابن عباس: يَهدِ قلبه لليقين، فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليُخطئه، وما أخطأه لم يكن ليُصيبه، وقال علقمة: هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله".[99]

وعن عمر بن الخَطَّابِ رضي الله عنه أنه قالَ: "بيْنَما نَحْنُ عِنْدَ رَسولِ اللهِ ﷺ ذاتَ يَومٍ، إذْ طَلَعَ علَيْنا رَجُلٌ شَدِيدُ بَياضِ الثِّيابِ، شَدِيدُ سَوادِ الشَّعَرِ، لا يُرَى عليه أثَرُ السَّفَرِ، ولا يَعْرِفُهُ مِنَّا أحَدٌ، حتَّى جَلَسَ إلى النبيِّ

---

[97] - صحيح مسلم، المرجع السابق، ج4، ص2295.

[98] - مدارج السالكين، المرجعِ السابق، ج2، ص376.

[99] - تفسير القرآن العظيم؛ ابن كثيرعماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، المرجع السابق، ج8، ص161.

ﷺ، فأسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إلى رُكْبَتَيْهِ، ووَضَعَ كَفَّيْهِ على فَخِذَيْهِ. وَقالَ: يا مُحَمَّدُ أخْبِرْنِي عَنِ الإسْلامِ، فقالَ رَسولُ اللهِ ﷺ : الإسْلامُ أنْ تَشْهَدَ أنْ لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وأنَّ مُحَمَّدًا رَسولُ اللهِ ﷺ، وتُقِيمَ الصَّلاةَ، وتُؤْتِيَ الزَّكاةَ، وتَصُومَ رَمَضانَ، وتَحُجَّ البَيْتَ إنِ اسْتَطَعْتَ إلَيْهِ سَبِيلًا، قالَ: صَدَقْتَ، قالَ: فَعَجِبْنا له يَسْأَلُهُ، ويُصَدِّقُهُ، قالَ: فأخْبِرْنِي عَنِ الإيمانِ، قالَ: أنْ تُؤْمِنَ باللَّهِ، ومَلائِكَتِهِ، وكُتُبِهِ، ورُسُلِهِ، والْيَومِ الآخِرِ، وتُؤْمِنَ بالقَدَرِ خَيْرِهِ وشَرِّهِ، قالَ: صَدَقْتَ، قالَ: فأخْبِرْنِي عَنِ الإحْسانِ، قالَ: أنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأنَّكَ تَراهُ، فإنْ لَمْ تَكُنْ تَراهُ فإنَّه يَراكَ، قالَ: فأخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ، قالَ: ما المَسْؤُولُ عَنْها بأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ قالَ: فأخْبِرْنِي عن أمارَتِها، قالَ: أنْ تَلِدَ الأمَةُ رَبَّتَها، وأَنْ تَرَى الحُفاةَ العُراةَ العالَةَ رِعاءَ الشَّاءِ يَتَطاوَلُونَ في البُنْيانِ، قالَ: ثُمَّ انْطَلَقَ فَلَبِثْتُ مَلِيًّا، ثُمَّ قالَ لِي: يا عُمَرُ أتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟ قُلتُ: اللَّهُ ورَسولُهُ أعْلَمُ، قالَ: فإنَّه جِبْرِيلُ أتاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ"[100].

مما يستفاد من قوله ﷺ: "وتُؤْمِنَ بالقَدَرِ خَيْرِهِ وشَرِّهِ"؛ أن الله عز وجل يمتحن عباده بالنعم كما يمتحنهم كذلك بالمصائب والنقم: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾ "ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون" (الأنبياء 35). ومن أمثلة هذا الشر: الفقر، والمرض، والهموم، والآلام النفسية، وموت الأقارب والأحباب وغير ذلك من الابتلاءات التي يكفر الله بها ذنوب عباده المحتسبين الصابرين على ما أصابهم، ولينالوا بذلك الأجر والثواب من الله سبحانه. وإذا كان المسلم مطالب بلزوم الصبر والرضا في مواطن الشر، أي؛ عن نزول المصائب،

---

100 - صحيح مسلم، المرجع السابق، ج1، ص36

فهو مطالب أيضا عند ابتلائه بالخير؛ ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ ﴾، بأن يكثر من شكر الله على نعمه، ويجتهد ما استطاع في القيام بأعمال الشكر المادية والمعنوية.

3- حسن الظن بالله سبحانه

قال الحي القيوم: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (الزمر 53).

"يخبر تعالى عباده المسرفين بسعة كرمه، ويحثهم على الإنابة قبل أن لا يمكنهم ذلك فقال: "قُل يا أيها الرسول ومن قام مقامه من الدعاة لدين الله، مخبرا للعباد عن ربهم ﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ باتباع ما تدعوهم إليه أنفسهم من الذنوب، والسعي في مساخط علام الغيوب؛ ﴿لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ ﴾ أي: لا تيأسوا منها، فتلقوا بأيديكم إلى التهلكة، وتقولوا قد كثرت ذنوبنا وتراكمت عيوبنا، فليس لها طريق يزيلها ولا سبيل يصرفها، فتبقون بسبب ذلك مصرين على العصيان، متزودين ما يغضب عليكم الرحمن، ولكن اعرفوا ربكم بأسمائه الدالة على كرمه وجوده، واعلموا أنه يغفر الذنوب جميعا من الشرك، والقتل، والزنا، والربا، والظلم، وغير ذلك من الذنوب الكبار والصغار؛ ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ أي: وصفه المغفرة والرحمة، وصفان لازمان ذاتيان، لا تنفك ذاته عنهما، ولم تزل آثارهما سارية في الوجود، مالئة للموجود، تسح يداه من الخيرات آناء الليل والنهار، ويوالي النعم على العباد والفواضل في السر والجهار، والعطاء أحب إليه من المنع، والرحمة سبقت الغضب

وغلبته، ولكن لمغفرته ورحمته ونيلهما أسباب إن لم يأت بها العبد، فقد أغلق على نفسه باب الرحمة والمغفرة، أعظمها وأجلها، بل لا سبب لها غيره، الإنابة إلى الله تعالى بالتوبة النصوح، والدعاء والتضرع والتأله والتعبد،. فهلم إلى هذا السبب الأجل، والطريق الأعظم"[101].

إن المسلم حين يعلم أن الله وصف نفسه بالتواب وبالغفور الرحيم، لا يسعه إلا أن يحسن الظن به، ويحتقر ذنوبه أمام سعة رحمته سبحانه. والله يمقت من ييأس من رحمته وعفوه، لأنه بذلك يسيئ الظن بخالقه الرحيم. بل إن الله جعل سوء الظن به من صفات المنافقين؛ حيث يقول جل وعلا عن المنافقين حين تركوا الرسول ﷺ وأصحابه في غزوة أحد: "وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية" (آل عمران 154).

وقال رسول الله ﷺ : "يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أنا عند ظن عبدي. وأنا معه حين يذكرني. فإن ذكرني في نفسه، ذكرته في نفسي. وإن ذكرني في ملإ، ذكرته في ملإ خير منه. وإن اقترب إلي شبرا، تقربت إليه ذراعا. وإن اقترب إلي ذراعا، اقتربت إليه باعا. وإن أتاني يمشي، أتيته هرولة". [102]
قال الإمام النووي رحمه الله في شرح مسلم: "قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي قَالَ الْعُلَمَاءُ مَعْنَى حُسْنُ الظَّنِّ بِاَللَّهِ تَعَالَى أَنْ يَظُنَّ أَنَّهُ يَرْحَمُهُ وَيَعْفُو عَنْهُ قَالُوا وَفِي حَالَةِ الصِّحَّةِ يَكُونُ خَائِفًا رَاجِيًا وَيَكُونَانِ سَوَاءً وَقِيلَ يَكُونُ الْخَوْفُ أَرْجَحَ فَإِذَا دَنَتْ أَمَارَاتُ الْمَوْتِ غَلَّبَ الرَّجَاءَ أَوْ

---

[101] - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، المرجع السابق، ص859.

[102] - صحيح مسلم، المرجع السابق، ج4، ص 2064.

مَحْضَهُ لِأَنَّ مَقْصُودَ الْخَوْفِ الِانْكِفَافُ عَنِ الْمَعَاصِي وَالْقَبَائِحِ وَالْحِرْصُ عَلَى الْإِكْثَارِ مِنَ الطَّاعَاتِ وَالْأَعْمَالِ وَقَدْ تَعَذَّرَ ذَلِكَ أَوْ مُعْظَمُهُ فِي هَذَا الْحَالِ فَاسْتُحِبَّ إِحْسَانُ الظَّنِّ الْمُتَضَمِّنُ لِلِافْتِقَارِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَالْإِذْعَانِ لَهُ". [103]

إن هذا الحديث القدسي من أحاديث الرجاء الجليلة التي تبشر العبد المسلم بما يشتمل عليه حسن الظن بالله من بشائر الخير وجزيل الثواب، مع بيان أن الله عز وجل أقرب إلى عبده المطيع من حبل وريده.

قال الشاعر أبو نواس:

يَا رَبِّ إِنْ عَظُمَتْ ذُنُوبِي كَثْـــرَةً   فَلَقَـدْ عَلِمْـت بِـأَنَّ عَفْوَك أَعْظَمُ

إِنْ كَـانَ لَا يَرْجُـوك إِلَّا مُحْسِـــنٌ   فَمَنْ الَّـذِي يَـدْعُـو إِلَيْـهِ الْمُجْرِمُ

أَدْعُوك رَبِّ كَمَـا أَمَرْت تَضَـــرُّعًـا   فَـإِذَا رَدَدْت يَـدِي فَمَنْ ذَا يَرْحَمُ

مَـا لِي إِلَيْـك وَسِـــيلَـةٌ إِلَّا الرَّجَـا   وَجَـمِـيـلُ ظَنِّي ثُمَّ أَنِّي مُسْـــلِـمُ

ثم إن النبي ﷺ قد نهى المسلمين عن سوء الظن بالله لا سيما عند الموت؛ حيث يقول: "لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله". هذا وإن حسن الظن بالله يستلزم حسن العمل الذي تثمره الطاعة، وأعمال البر والقربات. لأن الركون إلى الأماني والاغترار بعفو الله دليل على الأمن من مكره وغضبه. وليت شعري كيف يرجو رحمة الله ويدعي حسن الظن به من لا يطيعه بإصراره على الذنوب والمعاصي؟

---

[103] - شرح النووى لصحيح مسلم، ج17، ص210.

هذا وإن الوحي القرآني العظيم والمُعجز، لا يملك العاقل النزيه إلا أن يعظمه ويقف أما حقائقه وقفة إكبار وإجلال. وإن لبيان القرآن لروعة تأخذ بقلب قارئه وتأسره. كما أن حقائق القرآن وما تتضمنه من علوم وحكم، وقصص وأمثلة، وإعجاز علمي ولغوي؛ كل ذلك يدل على أن كتاب الله العزيز المعجزة العظمى التي أذهلت الإنس، وكذلك الجن الذين قالوا: ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَاناً عَجَباً ﴾ (الجن 1). وبما أن كل كلام خلا الوحي، يمكن أن يتطرق إليه الشك، وأن النفس بطبيعتها تنفر من الأفكار التي تعتريها الشكوك، فإن أعظم طريق لتقوية الشعور باليقين ما كان من جنسه؛ إنه الوحي القرآني العظيم.

المصادروالمراجع

القرآن الكريم برواية ورش عن نافع

الآداب الشرعية والمنح المرعية؛ محمد بن مفلح بن محمد بن مفرج، أبو عبد الله، شمس الدين المقدسي الراميني ثم الصالحي الحنبلي (ت 763هج). الناشر: عالم الكتب.

أدب الدنيا والدين؛ أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي، الناشر: دار مكتبة الحياة، 1986م، ص36.

الإسرا إلى مقام الأسرى، محيي الدين بن عربي، بيروت 1988.

تفسيرالقرآن العظيم؛ ابن كثيرعماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (ت 774 هج)، وضع حواشيه وعلق عليه: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، 1419 هـ - 1998 م.

التبصرة لابن الجوزي، ابن الجوزي؛ جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت 597)،دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط1، 1406هج- 1986م

التفسير الميسر؛ نخبة من أساتذة التفسير،الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف – السعودية الطبعة: الثانية، مزيدة ومنقحة، 1430هـ - 2009 م.، ج1، ص179.

التفسيرالوسيط للقرآن الكريم؛ محمد سيد طنطاوي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة – القاهرة، الطبعة: الأولى،

1997 - 1998 م.

التدبيرات الإلهية في إصلاح المملكة الإنسانية"، محيي الدين بن عربي، بيروت 1981.

الفتوحات المكية، محيي الدين بن عربي.

التعريفات، الجرجاني؛ علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (ت 816)، التحقيق: ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية بيروت –لبنان، الطبعة: الأولى 1403هـ-1983م.

تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان؛ عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (ت 1376هـ)،المحقق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى 1420هـ-2000 م

الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله، محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية – القاهرة، ط2، 1384 هـ- 1964 م.

جامع بيان العلم وفضله، ابن عبد البر القرطبي، دار ابن حزم، بيروت 2003/1424،

جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري؛ أبو جعفر، محمد بن جرير الطبري (ت 310)، دار التربية والتراث - مكة المكرمة، د.ت.

حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، مطبعة السعادة - بجوار محافظة مصر،عام النشر: 1394 هـ - 1974 م.

الزهد لابن أبي الدنيا؛ أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن

سفيان بن قيس البغدادي الأموي القرشي المعروف بابن أبي الدنيا (ت 281هـ)، الناشر: دار ابن كثير، دمشق الطبعة الأولى 1420هـ-1999 م

الزهد والرقائق؛ عبد الله بن المبارك المروزي (ت181هج)، من رواية الحسين المروزي (وملحق بآخره زيادات من رواية نعيم بن حماد).حققه وعلق عليه: حبيب الرحمن الأعظمي. قام بنشره: محمد عفيف الزعبي، بإذن خطي من محققه حبيب الرحمن الأعظمي، ووكيل مجلس إحياء المعارف بـ (ماليكاون) ناسك (الهند)، د.ت.

سنن أبي داود، أبو داود؛ سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني (ت275)، المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت.

سنن الترمذي، الترمذي؛ محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (ت 279)، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر ومحمد فؤاد عبد الباقي وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصرالطبعة: الثانية، 1495 هـ - 1975 م.

صحيح البخاري، البخاري؛ أبو عبد الله، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة ابن بردزبه البخاري الجعفي، تحقيق: جماعة من العلماء، الطبعة: السلطانية، بالمطبعة الكبرى الأميرية، ببولاق مصر، 1311 هـ، بأمر السلطان عبد الحميد الثاني.

صحيح ابن حبان: أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد التميمي البُستي (ت 354)، المحقق: محمد علي سونمز، خالص آي دمير، دار ابن حزم – بيروت، ط1، 1433هج- 2012م.

صحيح مسلم، مسلم؛ أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت 261)،المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، ثم صورته دار إحياء التراث العربي ببيروت، وغيرها، عام النشر: 1374 هـ - 1955 م.

صفة الصفوة، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، المحقق: أحمد بن علي

دار الحديث، القاهرة، مصر،الطبعة: 1421هـ/2000م.

صيد الخاطر؛ جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت 597هـ)، بعناية: حسن المساحي سويدان، دار القلم – دمشق الطبعة: الأولى 1425هـ - 2004م.

الطبقات الشافعية الكبرى؛ تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي (ت 771هج)، المحقق: د. محمود محمد الطناحي د. عبد الفتاح محمد الحلو، الناشر: هجر للطباعة والنشر والتوزيع،الطبعة: الثانية، 1413هـ.

فتح الباري بشرح البخاري؛ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وتصحيح تجاربه: محب الدين الخطيب. الناشر: المكتبة السلفية - مصرالطبعة: السلفية الأولى 1380- 1390هج

الفروق اللغوية؛ أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (395هج)، حققه وعلق عليه: محمد إبراهيم سليم، الناشر: دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة – مصر.

الفوائد، ابن القيم؛ محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت 751)، دار الكتب العلمية – بيروت، ط2، 1393هج.

في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، 1417 هج-1996م، ط. 25.

كتاب اليقين، الإمام الحافظ عبد الله بن أبي الدنيا، دار الكتب العليمة، بيروت

لسان العرب،ابن منظور؛ محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (ت 711)، الحواشي: لليازجي وجماعة من اللغويين، دار صادر – بيروت، ط3، 1414هج.

مجموع الفتاوى؛ شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم رحمه الله وساعده: ابنه محمد وفقه الله، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف - المدينة المنورة السعودية، عام النشر: 1425 هـ - 2004 م.

مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد و إياك نستعين، ابن القيم؛ محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت 751)، المحقق: محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي – بيروت، ط3. 1416 هـ - 1996م.

المعجم الكبير،الطبراني؛ سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (ت 360)، المحقق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية – القاهرة، ط2، د.ت.

المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثانية، 1392.

مسند الإمام أحمد بن حنبل؛ الإمام أحمد بن حنبل (164-241 هـ)، المحقق: شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد – وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة، عدد الأجزاء: 50، الطبعة: الأولى، 1421 هـ - 2001 م.

العقل تنظيمه وإداراته، هانئ عبد الرحمن مكروم، القاهرة 1997/1417.

فهرس الكتاب

... وما ساد المسلمون وازدهرت حضارتهم، إلا بعدما أقاموا صرح العلم، ومارسوا التفكر والتدبر في كتاب الله العزيز، وفي النفس والكون والآفاق، مسترشدين بالوحي والسنة النبوية. إن العلم، أساس الدين والدنيا وسر صلاحهما لا سيما إذا اقترن بالخشية. وكلما استضاءت الحياة بالعلم، استزادت من النعيم، وكلما ابتعدت وانحرفت عنه، اقتربت من الجحيم. فالعلم والسعادة صنوان كما أن الجهل والشقاوه أخوان. وما تنعم المتنعمون ولا تلذذ المتلذذون، بأكثر من تنعمهم وتلذذهم بنعمه العلم، لأن كل لذة غير لذته فانية.

واقتران العلم بالعمل والخشية يثمر الحكمة التي هي العلم بأحكام الدين، والعمل بمقتضاها؛ هبة من الله ونعمة منه يكرم بها من يشاء من عبادة المؤمنين. وإنك لتجد العبد الذي حظي بها ، قد أوتي نورا يميز به بين الحق والباطل، ويضع الأمور في مواضعها بكل يسر وتلقائية.

ولكي يقترن العلم بالعمل مع وجوب الخشية، وجب استحضار عنصر اليقين الذي هو من الإيمان بمنزلة الروح من الجسد. وإذا خالط اليقين شغاف القلب؛ زكا علم صاحبه، وبورك في عمله، وتنورت بصيرته، وأجرى الله الحكمة من قلبه على لسانه.